وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
المختار من التراث العربي
(١٣٠)

# المختار من

# عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة

لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل

اختارها
د. علي إبراهيم كردي



# المُخْتَارُ مِن

# عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة

وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
المختار من التراث العربي
(١٣٠)

# المختار من

# عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة

لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل

اختارها
د. علي إبراهيم كردي

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٥

المختار من عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة/ لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي؛ اختارها علي إبراهيم كردي .- دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٥ .- ٢٩٦ ص ؛ ٢٠ سم .- (المختار من التراث العربي ؛ ١٣٠) .

١- ٨١٨,٠٢ هـ ذ ي م ٢- العنوان ٣- ابن هذيل

٤- كردي ٥- السلسلة

# المقدّمة

كتاب «عين الأدب والسياسة، وزين الحَسب والرِّياسة» لعالم أندلسيّ جليل من علماء القرن الثامن الهجري، هو أبو الحسن عليّ بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاريّ الغرناطيّ.

ولم نقف لابن هذيل على ترجمة فيما عدنا إليه من المصادر الأندلسيّة، وكلُّ ما نعرفه عنه أنّه عاش في كنف «الدولة النصرية»، أو دولة «بني الأحمر» في غرناطة، وأنّه أهدى كتابين من كتبه إلى السلطان الثامن من سلاطين بني الأحمر، محمّد بن يوسف بن اسماعيل بن فرج، المولود سنة ٧٣٩ هـ، والمتوفّى سنة ٧٩٣هـ. وأنّه يدين بالتّلمذة للشّريف الغرناطي المتوفى سنة ٧٦ هـ.

والكتاب من الكتب المهمّة، الفريدة في بابها، جمع فيه صاحبه كلّ ما يتعلّق بالحكم، وسياسة الرَّعيّة، وبيّن ما يجب أن يتحلّى به الملك، أو الرئيس، من صفات، وخِلال، وسجايا، تجعله أهلاً للرئاسة.

ومادّة الكتاب منتقاة من كتب التُّراث الإسلامي بفروعها المختلفة، وصرّح المؤلّف في مقدّمة تأليفه أنّ عمله كان مقصوراً على حُسن الاختيار، والتَّرتيب، والتّبويب، والتَّهذيب، والتقريب، فقال:

«. . . وفضيلة هذا التّأليف هي في جمع ما افترق، ممّا تناسق واتّسق، واختيار عيون، وترتيب فنون، من أحاديث نبوية، ومكارم أدبيّة، وحِكَم باهرة، وأبيات نادرة، وأمثال شاردة، وأخبار واردة، ووصايا نافعة، ومواعظ جامعة، ومروءات سريّة، وسياسات سنيّة، ومعانٍ مستظرفة، وحكايات مستطرفة، وجميع ذلك مُطَّرد بكلّ شعر جزل سهل، بريء من الغزل والهَزْل . . » .

فالجدّيّة هي سمة التّأليف الذي بين أيدينا، لأنّ سموّ الدُّول، ورفعتها مقرونان بالجدّ والكدّ، والنظر إلى معالي الأمور، والابتعاد عن الملذّات والشهوات .

وجعل المؤلف كتابه في أربعة أقسام :

- الأوّل : في نُبَذ من الأحاديث والحكم والأمثال التي يقوى الشّاهد بها، ويعظم الاستدلال .

- الثـاني: في السُّؤدد والمروءة، ومكارم الأخـلاق، ومداراة النَّاس، والتأدّب.

- الثـالث: في طُرَف من الحكايا والآداب الصَّادرة عن أولي الألباب والأحساب.

- الرابع: في جـمل من الوصـايا والمواعظ الحسـان، العظيمة الفائدة والمنفعة لكلّ إنسان.

وقد ضمّن المؤلّف كُلَّ قسم من الأقسام مجموعة من الفصول كالآتي:

ضمّ القسم الأوّل الفصول التالية: فصل إنَّ، إنّما، إنْ، ما، لا، إيّاك، إذا مَن، ليس، رُبَّ.

ثمّ جاء بفصول الأعداد فصل واحد، فصل اثنين، فصل ثلاثة . . . إلى فصل عشرة، وكان في كل فصل يبدأ بالحديث الشريف، ثم بالحكمة المأثورة عن السَّلف، ثم بالشّعر المبدوء بالحرف أو العدد صاحب الفصل.

أما في القسم الثّاني فأتى بأربعة فصول، اختصّ الفصل الأول بالأدب، والثاني بالمروءة، والثالث بالمال، والرابع في التحبّب إلى النّاس ومداراتهم، والمسالمة بهم.

في حين ضم القسم الثالث فصلين فقط: الفصل الأول: في الأخبار التي تتعلّق بذي الأمرة والسِّياسة. والفصل الثاني: في الأخبار التي تتعلّق بذوي الهمم والرياسة.

وضمّ القسم الرابع فصلاً في مواعظ النبي ﷺ، ووصاياه، ومواعظ السلف الصّالح ووصاياهم، وغيرهم من العلماء والحكماء.

كما ضمّ هذا القسم مجموعة من الفصول لا عناوين لها، تضمّ مجموعة من القصص والأخبار والمواعظ عن السلف الصالح، وتخدم الغاية من تأليف الكتاب.

وختم الكتاب بفصل يتعلّق بالسلاح، وأنواعه، ووجول إتقان استعماله، وهو منقول من كتاب «تحفة الأنفس»، وبالتحديد من القسم الثاني منه المطبوع بعنوان: «حلية الفرسان وشعار الشجعان».

وقد خلّف أبو الحسن بن هذيل مجموعة من الكتب طُبع أكثرها وهي:

١ - تحفة الأنفس وشعار سكّان الأندلس، طبع كاملاً بباريس سنة ١٩٢٢م، وطُبع الجزء الثاني منه محققًا بعنوان «حلية الفرسان وشعار الشجعان».

٢ - مقالات الأدباء ومناظرات النُّجباء. مطبوع.

٣ - تذكرة من اتّقى: مطبوع.

٤ - الفوائد المسطّرة في علم البيطرة مطبوع.

٥ - كمال البغية والنَّيل، ذكره في عين الأدب والسياسة ص ١٠٦ و ١٢٥، ونقل منه.

٦ - عين الأدب والسِّياسة وزين الحَسَب والرِّياسة، وطُبع غير طبعة:

- أولها في مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٠٣هـ - ١٨٨٥ م.

- ثم طبع على هامش كتاب «غرر الخصائص الواضحة» للوطواط بالمطبعة الأدبية بمصر سنة ١٩٦٠م.

- ثم طبع بدار الكتب العلمية ببيروت، وهي التي اعتمدتها في الاختيار.

ويجب لفت النظر إلى أن طبعات الكتاب كلّها ملأى بالتَّصحيف والتحريف، وتمور بالأغلاط الطباعيّة وغيرها، ممّا يجعل الكتاب في حاجة إلى تحقيق علميّ، يعود بالنفع على جمهرة الباحثين.

طريقة الاختبار:

- حافظت على ترتيب أقسام الكتاب، وعلى ترتيب الفصول وعناوينها.

- اخترت الأخبار والحكايات والمواعظ والأشعار بعناية، واستبعدت المكرّر والمتشابه منها، وقصدت التنويع في الاختيار بين الشعر والنثر.

- حاولت- قدر المستطاع- تحرير النُّصوص المختارة من التحريف والتصحيف الواقعين في الكتاب المطبوع.

- أوردت النصوص كما جاءت في المطبوع، ولم أعمد إلى تحقيقها، والتعليق عليها، لئلا أثقل الكتاب بالحواشي، وتمشيًّا مع خطة الوزارة في تقريب كتب التُّراث من عموم الناس، وبأبسط صورة.

وفي الختام أرجو من اللّه سبحانه وتعالى أن أكون قد وُفّقت في تقريب كتاب «عين الأدب والسِّياسة وزين الحَسَب والرّياسة» من جمهور القُرّاء، والله من وراء القصد.

**د. علي إبراهيم كردي**

**١/٩/٢٠٠٣م**

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وَهب لنا العقولَ والأذهان، ومنحنا فصاحةَ اللّسان، وألهمنا التّبيان، وحَضّنا على التَّحلّي بالحلي الأدبيّة، والتَّخلّق بالمكارم العَليّة، ورَغّبنا في الاقتداء بالسُّنَن السَّنيَّة، والاهتداء بالأقوال المرضيّة الزكيَّة، المتكفّلة بالسَّعادة الدِّينيَّة والدُّنيويّة، وأرشدَنا إلى الطَّريق الأسْنى، وأمَرَنا بالإحسان والأفعال الحُسنى، ونَهانا عن الأخلاق الدَّنيئة اللَّئيمة، والأفعال الرَّديئة الذَّميمة. وأنعم علينا بالبلاغة والبيان، فقالَ جَلَّ وعَلا في مُحكم القرآن: ﴿**يُؤتي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أوتيَ خَيْراً كثيراً**﴾ (البقرة: ٢٦٩).

فبالبيانِ تُسْتَخْرَجُ الحقائق، وتُنَمَّقُ الحكم والرَّقائق، ويتَوَصَّلُ إلى معرفة الخالق، ويُستَعانُ على شرح العلوم، ويتَفنَّنُ في الكلام المنثور والمنظوم، وبمكارم الأخلاق يُستَدَلُّ

على فَضْل الطَّبْع، وكَرَم النَّجْرِ[1]، وطيب الأعراق. وبالاستمساك بحبلِ المروءة والآداب تظهر نتيجة العقل وثمرة الألباب.

وبَعد، فإنَّ التَّأليف غير موقوف على زمان، والتَّصنيف ليس بمقصور إلى أوان، لكنَّها صناعةٌ ربَّما قصّرت فيها سوابق الأفهام، وسبيلٌ ربّما حادَت عنها أقدامُ الأوهام.

قال بعضُ الحكماء: لِكُلِّ شيءٍ صِناعَةٌ، وصِناعَةُ التّأليف صناعةُ العقَل.

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لولا تفسيرُ العلُماء، ونَقَلُهم آثار الأوائل في الصُّحُف، لبَطلَ أولُ العلم وصناع آخره، ولذلكَ قيل: لا يزالُ النّاسُ بخير ما بقي الأوّلُ حتّى يتعلَّم الآخرُ.

قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| إذا تحدَّثْ في قَوْمٍ لِتُؤنِسَهُمْ | مِنَ الحديثِ بما مَضى وما يأتي |
| فلا تُعاوِدْ حَدِيثًا إنَّ طَبْعَهُمُ | مُوَكَّلٌ بمُعَاداةِ المُعاداتِ |

(١) النَّجر والنّجار: الأصل والحَسَب.

والذي عليه في التّأليف المدار، وهو حُسْنُ الانتقاء والاختيار، مع التَّرتيب والتَّبويب، والتَّهذيب والتّقريب.

قال بعض العلماء: اختيار الكلام أشَدُّ من نَحْتِ السِّهام وقالوا: اختيارُ المرءِ وافدُ عقله، ورائدُ فضله.

وفَضيلةُ هذا التّأليف هي في جمع ما افترق، ممّا تناسبَ واتَّسق، واختيار عيون وترتيب فنون، من أحاديث نبويّة، ومكارم أدبيّة، وحِكَمٍ باهرة، وأبياتٍ نادرة، وأمثال شاردة، وأخبارٍ واردة، ووصايا نافعة، ومواعظَ جامعة، ومُروءاتٍ سَرِيَّة، وسياسات سَنِيَّة، ومَعانٍ مُسْتَطْرَفة وحكاياتٍ مُسْتَطْرَفة. وجميع ذلك مُطَّرِدٌ بكُلِّ شعرٍ جزْلٍ سَهْلٍ، بريءٍ من الغَزَل والهزْل.

وإنّما يُذَمُّ ويُكْرَهُ من الكلام ما كان لَغْواً غير نافع، وهزْلاً عن منهج الجدِّ مانع. وأمّا ما يُنَبَّهُ به غافل، ويُعَلَّمُ به جاهل، ويُذكَّرُ به عاقل، فذاكَ، ممّا يَحْسُنُ، ويَجمُلُ، ويرجحُ به عَقْلُ سامعه ويَنبُلُ، ويقرب ما بَعُدَ مأخذه عليه، ويسهلُ ما صعب تناوله بالتّنبيه والإشارة إليه، إذ الشّكل مضافٌ إلى شكله، والجنْسُ إلى جنسه ومثله، أجعله إن شاءَ اللَّهُ مختصراً جامعًا، وتصنيفًا مفيداً نافعًا، تُصغي إليه الأفئدة والأسماع،

ولا تملّهُ القلوبُ والطِّباع، لأن التَّطويل داعٍ إلى الملل، كثيراً ما يقع فيه الخَطَلُ والزَّلَلُ وأقسمهُ على أربعة أقسام:

القسم الأوّل: في نُبَذ من الأحاديث والحكم والأمثال، التي يقوى الشَّاهد بها ويعظم الاستدلال.

القسم الثّاني: في السُّؤدَد والمروءة ومكارم الأخلاق، ومداراة النَّاس، والتَّأدُّب معهم في حالَتَيْ الغنى والإملاق.

القسم الثّالث: في طُرَفٍ من الحكايات والآداب، الصَّادرة عن أولي الألباب والأحساب.

القسم الرَّابع: في جُمَلٍ منه الوصايا والمواعظ الحسان، العظيمة الفائدة والمنفعة لكلّ إنسان.

وقد جمعتُ بعون الله عزّ وجلَّ في كتابي هذا من الكلام الّذي يحصلُ الانتفاع به أنواعًا جمّة في فنون مختلفة، وضروب متفرّقة، ومعانٍ مؤتلفة، وحَسْبُنا وكفى ما نقلتُ فيه من آيات التَّنزيل، وكلامِ المصطفى، وسمّيتُهُ بـ «عين الأدب والسِّياسَة، وزين الحَسَب والرِّياسة»، واللّه تعالى الموفّق لما فيه الرِّضا، والنّجاة لنا في الآخرة والأولى.

وهذا حين ابتدائي بذكر الأقسام، وتقييد الكلام، بحول الله تعالى وقوّته.

# القسم الأوّل

## في نُبَذ من الأحاديث والحِكم والأمثال
## التي يقوى الشّاهد بها ويعظم الاستدلال

اعلم أنَّ كلام الحكماء أكبرُ من أن يُدْركَهُ الإحصاء، ويستوفيه الاستقصاء، لكنّي أورد هذا القِسْمَ من الحِكَم المأثورة، والأمثال المشهورة، والفِقَر المنظومة والمنثورة، ما فيه مَقْنَعٌ وكفاية، وإن كنتُ لا أدرك من ذلك غاية ولا أبلغُ إلى نهاية.

قال بعضُهم: مَن تَفَرَّدَ بالعِلم لم تُوحِشْهُ خلوة، ومن تسلَّى بالكُتُب لم تَفُتْهُ سلوة. وإنَّ هذه القُلوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبدانُ، فابتغوا لها طرائف الحِكْمَةُ شَجَرَةٌ تنبتُ في القلب وتُثْمِرُ في اللّسان، وهي موقظةٌ للقُلوب من سِنَةِ الغَفْلة،

ومنقـذة للبـصـائر من سَكْرة الحَيْرَة، ومُحْيِيَةٌ لهـا مِنْ مَوْتِ الجهالَةُ، ومُسْتَخْرِجَةٌ لها مِنْ ضِيقِ الضَّلالة.

وَقَد أَثْنَى اللّهُ سُبحانَهُ على الحكمةِ فقال: **﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾** (البقرة ٢٦٩) وقَال رسولُ اللّه ﷺ: «قَلْبٌ ليسَ فيهِ مِنَ الحكمةِ شيءٌ كبيتٍ خرابٍ ولا عامرَ له».

وقالَ لُقمان: إنَّ القَلْبَ لَيَحْيَا بالكَلمةِ من الحكمة، كما تحيا الأرضُ بوابل المطر.

وقالَ أبانُ بن سليم: كلمةُ حكمة من أخيكَ خيرٌ لك من مالٍ يُعطيك، لأنَّ المالَ يُغطيكَ، والكلمةَ من الحكمة تهديك.

وقال بقراط: من اتَّخذَ الحكمةَ لجامًا، اتَّخذه النَّاسُ إمامًا.

ويرتبط الكلام في هذا القِسم في عشرين فصلاً من المقال: عشرة راجعة إلى بعض حروف المعاني المُصَدَّرة بها الآداب والأمثال، وعشرة من الأعداد التي تقوم للمستشهد بها مقام الاحتفال، والقصد في ذلك الاختصار، وترك الإكثار، ومن اللّه تعالى نسأل الإعانة والتوفيق، والهداية إلى سواء الطَّريق.

# فصل إنَّ

فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيّ ﷺ: «إنَّ الحكمةَ تَزيدُ الشَّريف شَرَفًا»

«إنَّ من الشِّعْرِ لحكمةً، وإنَّ مِنَ البيانِ لسِحْرا»

«إنَّ الأرواحَ جنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَما تَعارَفَ مِنْها ائتلَفَ، وما تناكرَ منها اختلف»

«إنَّ أشكَرَ النَّاسِ للّهِ أشكرُهم للنّاس».

«إنَّ لكلِّ دينٍ خلُقًا، وإنَّ خُلق هذا الدِّينِ الحَياءُ».

«إنَّ مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَركُهُ ما لا يعنيه»

«إنَّ التَّواضُعَ لا يَزيدُ العبْدَ إلاّ رِفْعَةً، فَتَواضَعُوا يرْفَعكُمُ اللّه، وإنَّ العفْوَ لا يَزيدُ العَبْدَ إلاّ عِزاً، فاعْفُوا يعُزَّكُمُ اللّهُ. وإنَّ الصَّدَقَةَ لا تَزيدُ المالَ إلا كثْرَةً، فتَصَدَّقُوا يُغْنِكُم اللّه».

ومن الحِكَمِ المأثورة عن السَّلَفِ وغَيْرِهم:

«إنَّ الصَّوابَ في الأسَدِّ لا الأشَدِّ

«إنَّ القُدْرَةَ تُصغر الأمنية.

«إنَّ العِلْمَ عِوَضٌ عن كُلِّ لَذَّةٍ، ومُغْنٍ عن كُلّ شَهْوَةٍ.

«إنَّ أضْعفَ الرَّأيِ ما سَنَح في البَديهةِ.

«إنَّ المُصيبةَ إذا نَزَلَتْ إنّما هي واحِدةٌ، ، فإنْ جَزِعَ صاحبُها كانت اثنتين.

«إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ وَسَّعَ أرْزَاقَ الحَمْقَى ليَعتبرَ العُقَلاء، ولْيَعلموا أنَّ الدُّنيا لا يُنالُ ما فيها بِعَقْلٍ، ولا حِيلةٍ.

أنَّ لكُلِّ فَضْلٍ زكاةٌ، وإنَّ زكاةَ المال الصدَقَةُ على الفَقيرِ المُحتاج. وإنَّ زَكاةَ القُوَّةِ المُدافَعةُ عن الضَّعيف المظْلومُ. وإنَّ زكاةَ البلاغَةِ القِيامُ بِحُجَّةِ مَن قد عجزَ عَن حُجَّتهُ، وإنَّ زكاةَ الجاه أنْ يُعادَ به على مَن لا جاهَ له وإنَّ زكاةَ العِلْمِ التَّعليمُ لِمَنْ قَصَّرَ عِلمهُ

إنَّ الآمالَ قَطعت أعناقَ الرِّجالِ كالسَّراب غَرَّ مَنْ رآهْ، وأخْلَفَ من رَجَاهُ.

ومنَ الشّعر في هذا الفصل قولهم.

إنَّ اللَّيالي للأنامِ مَناهِلْ
تُطْوَى وتُبْسَطُ بينهَا الأعمارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الهُمومِ طَويلةٌ
وطِوالُهُنَّ مَعَ السُّرورِ قِصَارُ

غيره:

إنَّ الشَّدائدَ قَدْ تَغْشَى الكريمَ لأنْ
تُبِينَ فَضْلَ سَجاياهُ وتُوضِحَهُ
كمِبْرَدِ القَيْنِ إذْ يَعْلُو الحَديدَ بهُ
وليسَ مَقْصَدُهُ إلاَّ لِيُصْلِحَهُ[1]

غيره:

إنَّ المُعلِّمَ والطَّبيبَ كلاهُمَا
لا يَنْصَحانِ إذا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا
فاصْبِرْ لِدائِكَ إنْ جَفَوت طَبيبَهُ
واصْبِرْ لجَهْلِكَ إنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمَا

---

(١) - القين: الحدّاد.

غـيره :

إنَّ النِّســاءَ كــأشــجــارٍ نَبَتْنَ لَنا
منْهــا المرارُ وبَعْضُ المُرِّ مــأكــولُ

إنَّ الـنِّســـــاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَـن خُلُقٍ
فـــــــــإنَّهُ واَجِبٌ لا بُدَّ مَفْعُولُ

غـيره :

إنَّ الغُصُونَ إذا قـــوَّمْتــهـــا اعْتَدَلَتْ
ولَن تـلـينَ إذا قَوَّمْتــــــــهَا الخَشَبُ

غـيره :

إنَّ الـسَّمــــاءَ إذا لـم تَبْكِ مُقْلَتُهــــا
لـم تَضْحَكِ الأرْضُ عَن شَيْءٍ مـن الزَّهَرِ

غـيره :

إنَّ الـــكـــريمَ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ
حتَّى تَراهُ غَنِيًّا وَهْوَ مَجْهـــــــودُ

غيره :

إنَّ الكِرامَ إذا ما أسْهَلُوا ذكَروا

مَنْ كانَ يألَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ

غيره :

إنَّ المقامَ على الهَوانِ مَذَلَّةٌ

والعَجْزُ آفَةُ حِيلَةِ المُحتَالِ

# فصل إنَّما

**فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ»

«وإنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخْلاقِ».

«وإنَّما يُدْرَكُ الخَيْرُ كُلُّهُ بالعَقْلِ، ولا دِينَ لِمن لا عَقْلَ لَهُ».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

إنّما لكَ مِن مالكَ ما أَمْضَيْتَهُ في حَياتِك.

إنّما هو درْهَمُك وسَيْفُك؛ فازرع بهذا مَن شكَرَك، واحصد بهذا مَن كَفَرَك:

إنّما يَرْضى بالدُّون مَن رضي بالدُّنيا.

إنّما يُخْتَبَرُ وُدُّ المَرْءِ عند الحاجة.

إنَّما يُخْتَبَرُ ذو البأسِ عند الحاجة، وإنّما يُخْتَبَرُ ذو الأمانةِ عند الأَخْذِ والعطاء.

وإنَّما يُخْتَبَرُ الأَهْلُ عند الفاقَةِ، وإنَّما يُخْتَبَرُ الإخوان عند النَّوائب.

**ومن الشِّعْر في هذا الفصل قولهم:**

إنَّمـا دُنْيَـاك سَـاعَـهْ ... فَـاجْـعَلِ السَّـاعَـةَ طاعَـهْ

وَاحْـذَرِ التَّـقْـصِيـرَ فـيهـا ... واجْـتَـهِـدْ مـقْـدارَ سَـاعَـهْ

وإذا أَحْـبَـبْـتَ عِـزّاً ... فـالْتَـمِسْ عِـزَّ الْقَنَـاعَـهْ

آخـر:

إنَّمـا الدُّنْيـا هِبَـاتٌ ... وعَـوارٍ مُـسْـتَـرَدَّهْ[1]

شِـدَّةٌ بَـعْـدَ رَخَـاءٍ ... ورَخَـاءٌ بـعْـدَ شِـدَّهْ

آخـر:

إنَّما الجُودُ أنْ تَجُودَ على مَنْ ... هُوَ للجُودِ مِنْك والبَذْلِ أَهْلُ

(١) العواري جمع عارية، وهي ما يعار من المتاع.

# فصل إنْ

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«إنْ أُمِّرَ عليكُم عبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ[1]، فاسْمعُوا وأَطيعُوا ما قَادَكُمْ بِكِتابِ اللّه».

«إنْ دُعيتُم إلى كُراعٍ[2] فأجيبوا».

**ومِن الحكمة المأثورة عن السَّلَف وغيرهم:**

إنْ عَجزَ مالُكَ عن المسكينِ، أو دَواؤكَ عن المريضِ، أو حيلَتُكَ عن استخراج المسجون، فلا تعجز عنهم رحمتُكَ وعيادَتُك.

إن قَصرتْ يَداكَ عَنِ المُكَافأة فَلْيَطُلْ لِسانُك بالشُكْر.

إنْ شُووِرْتَ فانْصَحْ، وإنْ عُدِيَ عليكَ فاصفَح.

(١) مجدّع: مقطوع الأنف أو الأذن.

(٢) الكراع: ما دون الرُّسغ من ذوات الحافر.

إنّ أردْتَ أن تَصِلَ إلى ذُروةِ المَجْدِ، فَعليكَ بِحِفْظِ العَهْدِ.

إنّ يَكُنِ الشُّغْلُ مَحْمَدَةً، فإنَّ الفَراغَ مَفْسَدَةٌ.

**ومِنَ الشِّعرِ في هذا الفصل قولهم:**

إنْ يَحْسُدوني فإنِّي لا أَلُومُهُمُ
قبلي مِنَ النَّاسِ أهْلُ الفَضْلِ الفَضْلِ قدحُسدوا
فدام لي ولَهُم ما بي وما بهمُ
ومَاتَ أكثرُنا غَمًّا بما يَجِدُ

غيره:

إن كانَ مَقْصَدكَ الكَمَال فَلا تكُنْ
أبدًا بِما تَلْتَذُّهُ مُتَهَمِّمَا
وانْصَبْ لإحْصَاءِ العُلوم ورَعْيِها
تَنَلِ السَّعَادَةَ والمفَازَ الأعْظَما
فأبوكَ آدمُ قَبْلُ آثَرَ شَهْوَةً
فإذا بها قد جَرَّعَتْهُ العَلْقَما

# فصل مـا

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«ما نُزِعَت الرَّحْمةُ إلاّ مِن شقيٍّ»

«ما رُزِقَ العبدُ رِزقًا أوْسَعَ عليهِ منَ الصبّرِ».

«ما عفَا الرَّجُلُ عن مَظْلَمَةٍ إلاّ زاده اللّهُ بها عِزاًّ».

«ما نَحَلَ[1] والدٌ ولَدًا أفْضَلَ مِن أدَبٍ حَسَنٍ».

«ما كانَ الرِّفْقُ في شيءٍ قطُّ إلاَّ زانَهُ، وما كان الخرق[2] في شيءٍ قطُّ إلاّ شَانَهُ».

«ما مِنْ عَبْدٍ يَسلُكُ طريقًا يلتمسُ بهِ العِلْمَ إلاَّ سَهَّلَ اللّهُ له طريقًا إلى الجنَّةِ».

«ما مِن زينةٍ تَزيَّنَ العِبادُ بها أفْضَلَ من العَقْلِ».

---

(١) نحل: أعطى.

(٢) الخَرَقُ: الكذب، والخُرقُ: الحمق والجهل.

ومِن الحكمةِ المأثورةِ عن السَّلَفِ وغَيرِهِمْ:

مَاوَدَّكَ مَنْ أهْمَلَ وِدَّك، ولا أحبَّكَ مَنْ أبغضَ حبَّكَ

ما عَصَى اللّهَ كريمٌ، ولا آثر الدُّنيا على الآخرةِ حكيم.

ما كُنْتَ كاتِمهُ عَدُوَّكَ، فلا تُطْلِعْ عليهِ صديقكَ.

ما رأيتُ تَبْذيراً قَطُّ إلاّ وإلى جَنْبِهِ حَقٌّ مُضَيَّعٌ.

ما أحبَّ أحَدٌ الرِّياسةَ إلاّ حَسَدَ، وبغَى، وطَغَى، وتَتَبَّعَ عيُوبَ النَّاسِ، وكَرِهَ أنْ يُذكَرَ أحَدٌ بِخَيْر.

ما فَجَرَ غَيُورٌ قطُّ.

ما أسْهَلَ الموتَ على مَن أيْقَن بما بعْدَهُ، وأصعَبَهُ على من شَكَّ فيما بعده.

ومن الشِّعرِ في هذا قولُهُم:

مـــا ذاق طَعْـمَ الـغِنى مَنْ لا قُنُوعَ لَهُ

ولَنْ تَرى قَـانِعًـا مَنْ عـاشَ مُـفْـتَـقِـرا

والعُــرْفُ مَن يَأْتِهِ يَحْـمَـدْ عَـواقِـبَـهُ

مـا ضَـاع عُـرْفٌ وإنْ أوْلَيْـتَـهُ حَـجَـرا

آخـر:

مـا النَّاسُ إلاَّ معَ الدُّنْيـا وصاحِبـهـا
وكَيْفَمـــا انْقَلَبَتْ يـومًا بـهِ انْقَلَبُوا

يُعَظِّمـونَ أخـا الدُّنْيـا فـإن وثَبَتْ
يـومًا عـليـــهِ بمَا لا يـشْتَهـي وَثَبُوا

آخـر:

مـا أحْسَنَ الدِّينَ والدُّنيـا إذا اجـتَمَعـا
وأقْبَحَ الـكُفْرَ والإفـــلاس بالـرَّجُلِ

آخـر:

مـــا كُلُّ مـــا يتَمـنّى المَرْءُ يُدركُهُ
تجـري الرِّياحُ بما لا تشـتـهي السُّفُنُ

آخـر:

مـــا بيْنَ طَرْفَةِ عيْنٍ وانْقِلابَتِهـــا
يـقَلِّبُ الأمْرُ مِنْ حَالٍ إلـى حـــالِ

# فصل لا

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«لا يردُّ القَضاء إلاَّ الدُّعاء».

«لا فَقْرَ أشدُّ مِن الجَهْلِ، ولا مالَ أعْوَنُ من العَقْل».

«لا كبيرةَ مع استغفارٍ، ولا صغيرةَ مع إصرار»

«لا تَصلحُ الصَّنيعَةُ[1] إلاّ عند ذِي حَسَبٍ أو دينٍ».

«لا يدخُلُ الجنَّةَ عَبْدٌ لا يأمَنُ جارُهُ بوائقَهُ».

«لا خيْرَ في صُحْبَةِ مَن لا يَرى لكَ مِثْلَ الَّذي ترى له».

«لا جزاءَ للنِّعْمَةِ مثل الشُكر».

«لا تَنْظُروا إلى مَن هُوَ فَوْقَكُمْ، وانظروا إلى مَن دُونِكُمْ، فإنّه أحْرَى ألاّ تَزْدَروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم».

---

(١) الصنيعة: الإحسان وفعل الخير.

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

لا يوجَدُ العَجُولُ محموداً، ولا المغْضُوبُ مَسْروراً، ولا الحُرُّ حَرِيصًا، ولا الكريمُ حَسُوداً، ولا الشَّرِهُ غنيًّا، ولا المَلُولُ ذا إخوانٍ.

لا تَحقِرَنَّ شيئًا مِنَ الخَيْرِ وإنْ كان صَغِيراً، فإنّك إذا رأيتَهُ سَرَّك مكانُهُ. ولا تَحقِرَنَّ شيئًا من الشَّرِّ وإن كان صَغِيراً فإنَّكَ إذا رأيتَهُ ساءكَ مكانُهُ.

لا تَطمعْ في كلِّ ما تَسْمَعُ.

لا تَطْلُبْ سُرْعَةَ العَمل، واطلُب تَجْويدَهُ، فإنَّ النَّاسَ لا يَسْألونَ في كمْ فُرِغَ منْهُ، وإنّما يسألون عَن جَوْدَةِ صنْعَتِه.

لا فائدةَ أَشْرَفُ من التَّوفيقِ، ولا ميراثَ أنْفَعُ من الأدب، ولا سَجِيَّةَ أكْرَمُ من حُسْنِ العبادَة.

لا تَعْمَلْ شيئًا من الخَيْرِ رياءً، ولا تَتْرُكْهُ حَياءً.

لا تَبِتْ على وَصيَّة، وإن كنت من جسْمكَ في صِحَّة، ومن عمرك في فُسْحَة فإنَّ الدَّهرَ خَائِنٌ، وكُلُّ ما هوَ كائنٌ كائن.

لا تُنالُ الرَّاحَةُ إلاَّ بالتَّعَب ، ولا تُدْرَكُ إلاَّ بالنَّصَب .

لا تؤخِّرْ عملَ يومِكَ لِغَدِكَ .

لا يُدْرَكُ الشَّبابُ بالخِضَابِ . ولا الغِنَى بالمُنَى ، ولا العِلْمُ بالادِّعاء .

لا تَكُنْ مِمَّنْ يلعنُ إبليس في العَلانيةِ ، ويطيعه في السِّرِّ .

**ومن الشِّعْرِ في هذا الفَصْل قَوْلُهم:**

لا تَحْقِرِ المَرْءَ إنْ رأيتَ بِهِ

دَمَامَةً أو رَثاثَةَ الحِلَلِ

فالنَّحْلُ لا شَكَّ في ضُؤولَتِهِ

يَشْتَارُ منهُ الفَتى جَنَى العَسَلِ[1]

آخر :

لا تَمْدَحَنَّ امْرأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ

ولا تَذِمَّنَّهُ مِنْ غَيْرِ تَجْرِيبِ

---

(١) اشتار العسل : استخرجه من موضعه وجناه .

فَرُبَّ خِدْنٍ وإنْ أبْدى بشَاشَتَهُ
يُضْحِي على خِدْنِهِ أَعْدَى مَن الذِّيبِ[1]

آخر :

لا تحقرنَّ امرأً إن كانَ ذا ضِعَةٍ
كَمْ مِن وَضيعٍ من الأَقْوَامِ قد رأَسَا
فَرُبَّ قَوْمٍ حقَرْناهُم فَلَمْ نَرَهُمْ
أَهْلاً لِخِدْمَتِنا صَارُوا لَنا رُؤَسا

آخر :

لا تغْتَرِبْ عَن وَطَنٍ
واذْكُرْ تَصَارِيفَ الجَوَى
أَمَا تَرَى الغُصْنَ إذا
ما فارقَ الأصْلَ ذوى

آخر :

لا تَقْنَطَنَّ فإنَّ اللّه ذُو كَرَمٍ
وما عليكَ إذا تَلْقَاهُ مِنْ بَاسِ

(١) الخِدْنُ: الصديق الذي يكون معك ظاهراً وباطنًا في كل أمر .

إلا اثنتين فـــلا تقـــربهـــمـــا أبَدًا

الـشِّرْكُ بالـلّهِ والإضـــــرارُ بالـنَّاسِ

آخـر:

لا تَســـــــــــأل المرءَ عَنْ خَلائقه

فـــــــــي وَجْهِهِ شَاهِدٌ مِنَ الخَبَرِ

آخـر:

لا تَطْلُبَنَّ مَعِيـــــــــــــشَةً بِمَذَلَّةٍ

فَلْيَأتِيـــــنَّكَ رِزْقُكَ المـــــقْدورُ

آخـر:

لا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وتـــأتـــيَ مِثْـــلَهُ

عَارٌ عَـــلـــيـــكَ إذا فَعَلْتَ عَـــظـــيـــمُ

آخـر:

لا يُشْـــبِـعُ النَّفْس شَيْءٌ حين تُحْرِزُهُ

و لا يزالُ لـهـــا في غــــيـــرهِ وَطَرُ

آخـر:

لا تَصْحَبَنَّ رَفِـيـقًا لَسْتَ تَأْمَنُهُ

بِئْسَ الرَّفِيقُ رَفِيقٌ غَـيـر مَأمُـونِ

آخـر:

لا تَجـزَعَنَّ على مـا فَاتَ مَطْلَبُهُ

فَلَسْتَ عُمْرَكَ للمـاضي بِمُرْتَجعِ

آخـر:

لا تَتْرُكِ الحَزْمَ في شيء تُحـاذِرُهُ

فـإنْ سَلِمْتَ فَمـا في الحَزْمِ من باسِ

## فصل إيّاكَ

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«إيَّاكَ ومَا يُعْتَذَرُ منْهُ».

«إيَّاكَ واللَّجاجة فإنّها ندامَةٌ».

«إيَّاكَ والمُزاحَ فإنَّه يُذهِبُ بهاءَ الوَجْهُ».

«إيَّاكَ والحِرْص فإنَّهُ أَخْرَجَ آدمَ منَ الجنَّة».

«إيَّاكَ والكلام فيما لا يعنيكَ».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

إيَّاكَ والجزَعَ عند المَصائبِ فإنَّه مَجلَبَةٌ للهَمِّ، وسوءُ ظَنٍّ بالرَّبِّ، وشماتَةٌ للعَدُوّ.

إيَّاكَ والبُخْلَ فإنَّ البَخيلَ خازنٌ لأعدائه.

إيَّاكَ والسُّكْنَى مع ذَوي الشَّحْناءِ[1]، فَخَيرُكَ فيهم يُطوى، وشَرُّكَ يُروى.

إيّاكَ والغَضَب فإنَّه يضطركَ إلى سوء الاعتذار

إيّاكَ ومُعاداة الرِّجَال فإنَّك لَن تعدمَ مَكْرَ حَليم، أو مُفاجأة لَئيم.

إيّاكَ وخِدْمَة مَن شَبِعَ من الرِّياسَة، ومَلَّ من السِّياسَة، فإنَّه يرى كبير ما تصنعه في حقّه صَغيراً، وصَغير ما يصنعهُ في حقّك كبيراً.

**ومن الشعر في هذا الفَصْل قولهم:**

إيّاكَ مِن زَلَلِ اللِّسَانِ فَإنَّما

عَقْلُ الفَتَى في لَفْظِهِ المسْمُوعِ

والمَرْءُ يَختَبِرُ الإِنَاءَ بِنَقْرِهِ

لِيَرى الصَّحيحَ بهِ مِنَ المَصْدُوعِ

---

(١) الشحناء: الحقد والعداوة والبغضاء.

آخـر:

إيّاكَ والـدُّنْيَا الـدَّنِيَّةَ إنَّهـــــــا
دَارٌ متَى سَالَمْتَهـــــــا لـم تَسْلَمِ

وتَجَنَّبِ الـــظُّلْمَ الَّذي هَلَكَتْ بـــهِ
أُمَمٌ تَوَدُّ لـو أنَّهـــــــا لـم تَظْلَمِ

آخـر:

إيّاكَ أنْ تَعِظَ الـرِّجــــــال وقَدْ
أصـبــحتَ مُحْتَــاجًا إلى الوعْظِ

# فصل إذا

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«إذا أتاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فأكرمُوهُ».

«إذا أراد اللّه تَعالى إنفاذَ قَضَائه وقَدَرِه سَلَبَ ذَوي العقُولِ عقولَهُم حتّى ينفذ قضاؤه وقَدَرُهُ».

«إذا أردتَ أمْراً فتَدَبَّرْ عاقبتَهُ».

«إذا أرادَ اللهُ بعبْدٍ خيْراً ألهمَهُ رُشْدَه».

«إذا استَنْصَحَكَ أخُوكَ فانْصَحْ لهُ».

«إذا أرادَ اللّهُ خيْراً جعَلَ لَهُ واعظًا من نفْسه.

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلفِ وَغيْرِهِمْ:**

إذا عثَرَ عاثِرٌ فاحْمَدِ اللّهَ ألاّ تكُونَهُ

إذا هَدأ غَضَبُكَ فتكلَّم.

إذا أرسلتَ الهديَّة أتَتْكَ الحاجةُ مَقْضِيَّة .

إذا أَحبَبْتَ فلا تُفْرِط ، وإذا أبغضْتَ لا تَشْطُطْ .

إذا عملتَ سيِّئةً فأتْبِعْها حَسَنَةً تَمْحُها سريعًا .

إذا أتاكَ الخَصْمُ وقد فُقِئت عينُهُ فلا تحكُمْ له حتى يأتي خَصمهُ، فلعَلَّهُ قد فُقِئت عَيناهُ جميعًا .

إذا تمّ العَقلُ نقصَ الكلامُ.

إذا رقَّت حالُ الإنسانِ هانَ على الإخوان .

إذا فاتكَ العلم فالزَمِ الصَّمتَ.

إذا قَيَّضَ اللّهُ للرَّجُلِ امرأةً كثيرةَ الحَياء ، جميلة المُحَيَّا ، مُساعدةً في جميع الأشياء ، مُعينةً على أمورِ الدِّين والدُّنيا ، فقد استطابَ المَحْيَا .

إذا شاروتَ العَاقِلَ صار نِصفُ عقله لك .

إذا هربَ الزَّاهدُ من النّاسِ فاطلبْهُ، وإذا طَلَبَهُمْ فاهْرَبْ منْهُ.

إذا كانَ الإمامُ عادلاً فلَهُ الأجْرُ، وعليكَ الشُكر ، وإذا كان جائرًا فلَهُ الوِزْرُ، وعليكَ الصَّبْرُ.

إذا مَدَحت َشيئًا فاختَصِرْ، وإذا ذَمَمْتَ فاقْتَصِرْ.

إذا لم يكن لكَ ما تُريدُ، فَأَرِدِ ما يكونُ.

إذا جلَسْتَ في مجلس ولم تكُنْ المُحَدِّث ولا المُحَدَّثَ فَقُمْ.

**ومن الشِّعر في هذا الفَصْل قولهم:**

إذا ما شِئتَ أَنْ تُدْعَى حكَيمًا
وتَلْحَقُ بالرِّجالِ ذَوي الكَمَالِ

فلا تَغْتَرَّ في الدُّنْيا بِشَيءٍ
ولا تَخْطُرْ لك الدُّنيا بحَالِ

آخر:

إذا كنْتَ في كُلِّ الأمورِ مُعَاتبًا
صديقَكَ لم تَلْقَ الَّذي لا تُعاتِبُهْ

فَعِشْ واحدًا أو صِلْ أخَاك فإنَّهُ
مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً ومُجانِبُهْ

آخر:

إذا ما كُنْتَ مُتَّخِذاً رَسُولاً

فَلا تُرْسِلْ سِوَى حُرٍّ نَبِيلِ

فإنَّ النُّجْحَ فِي الحَاجاتِ يأتي

لِطالِبِها عَلَى قَدْرِ الرَّسُولِ

آخر:

إذا كُنْتَ في حاجَةٍ مُرسِلاً

وأنتَ بِها كَلِفٌ مُغْرَمُ

فأرْسِلْ حكيماً ولا توصِه

وذَاكَ الحَكيمُ هو الدِّرْهَمُ

آخر:

إذا ما شئتَ أنْ تحيا سعيداً

وتَلْقَى اللّهَ بالعَمَلِ الكَريمِ

فَلا تَصْحَبْ سِوى الأخْيارَ واقْطَعْ

زَمَانَكَ في مُدارَسَةِ العُلومِ

آخـر:

إذا هَبَّت رِياحُكَ فـاغْـتَنِمْـهـا

فَـعُـقْـبَى كُلِّ خـافِـقَـةٍ سُكُونُ

ولا تغـفـل عن الإحْـسَـانِ فِـيـهـا

فَـمـا تَدرِي السُّكونُ مَـتى يَكُونُ

آخـر:

إذا كُنْتَ ذا رأيٍ فَكُنْ ذا عَـزِيمةٍ

فَـإنَّ فَـسَـادَ الرَّأيِ أن تَتَـرَدَّدا

ولا تُـمْـهِلِ الأعْـداءَ يومًـا بقـدرةٍ

وبادِرْهُمُ أنْ يَمْلِكُوا مِـثلَهُ غَـدا

آخـر:

إذا كُنْتَ جَـمَّـاعًـا لِمَـالَكَ مُـمْـسِكًا

فـأنْتَ عليـهِ خـازِنٌ وأَمينُ

تُؤدّيهِ مَـذمُـومًـا إلى غَـيْـرِ حـامِـدٍ

فـيـأكُلُهُ عَـفْـوًا وأنْتَ دَفينُ

آخـر:

إذا المَرْءُ أفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِه
ولامَ عليهِ غَيْرَهُ فَهْوَ أحْمَقُ
إذا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عن سِرِّ نَفْسِه
فَصدْرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ

آخر:

إذا أنتَ لَم تُعْرِض عن الجَهْلِ والخَنا
أَصبْتَ حَليمًا أو أصابكَ جاهلُ[1]

آخر:

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئًا فَدَعْهُ
وجَاوزْهُ إلى ما تَستَطيعُ

آخر:

إذا وتَرْتَ امرأً فاحْذَرْ عداوتَهُ
مَنْ يَزْرَعِ الشَّوكَ لا يَحْصدْ بهِ عِنَبًا

آخر:

إذا امتَحنَ الدُّنيا لَبيبٌ تَكَشَّفَتْ
لهُ عن عَدُوٍّ في ثِيابِ صَديقِ

---

(١) الخَنا: الفُحش في الكلام.

آخر:

إذا المَرْءُ لم يدنَسْ مِن اللُّؤمِ عِرضُهُ

فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَمِيلُ

آخر:

إذا أنتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ

وإنْ أنتَ أكرمْتَ اللَّئيم تَمَرَّدا

آخر:

إذا المَرْءُ أعْيَتْهُ المروءةُ ناشِئًا

فَمَطلَبُها كهلاً عليهِ شَديدُ

آخر:

إذا كنتَ في قومٍ فصَاحِبْ خِيَارَهُمْ

ولا تصْحَب الأرْدَى فتَرْدَى مع الرَّدِي

آخر:

إذا اشتدَّ عُسْرٌ فارْجُ يُسْرًا فإنَّهُ

قَضَى اللهُ أنّ العُسْرَ يتبَعُهُ اليُسْرُ

# فصل مَن

**فمن الحديث الوارد عن النَّبيِّ ﷺ:**

«مَن تَواضعَ للّه رفَعَهُ، ومَنْ تكبَّرَ وضعَهُ اللّهُ».

«من طَلبَ العِلْمَ تَكَفَّلَ اللّهُ برِزْقه».

«مَنْ كفَّ لسانَهُ عن أعْراضِ النَّاسِ أقالَهُ اللّهُ تعالى عثْرَتَهُ يوم القيامة».

«مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللّه عليه في الدُّنيا والآخرة».

«مَنْ كان يؤمنُ باللّهِ واليومِ الآخرِ فَلْيَقلْ خَيّراً أو ليَصْمُتْ».

«مَنْ فرَّجَ عن أخيهِ كُرْبَةً من كُرَب الدُّنيا فرَّج اللّه عنهُ كُرْبَةً من كُرَبِ يومِ القيَامة».

«مَنْ أصْبَحَ مُعافى في بَدَنه، آمنًا في سِرْبِه، عنده قُوتُ يَوْمِه، إنّما حيزت له الدُّنيا بحذَافيرها».

«مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كثر سَقَطُهُ، ومن كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ».

«مَنْ قَلَّ مالُهُ قَلَّ وَرَعُهُ».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

مَن عَرَفَ قَدْرَهُ علا أَمْرُهُ.

من حاسَبَ نَفْسَهُ رَبِح، ومَنْ غَفَلَ عنها خَسِرَ، ومن نَظَر في العواقب نَجا، ومن أطاعَ هواهُ ضَلَّ، ومن لم يَحلُمْ نَدِمَ، ومن صَبَرَ غَنِمَ، ومن خافَ أَمِنَ، ومَن اعتَبَر أبصرَ، ومن أَبْصرَ فَهِمَ، ومَن فَهِمَ عَلِمَ.

مَن سَرَّهُ بَنُوهُ ساءَتْهُ نَفْسُهُ.

مَن استَغْنَى عن النَّاس وقَروه وعَظَّموهُ.

من أَكْثَر المَشْورَةَ لم يعدم عند الصَّواب مادحًا، وعندَ الخَطأ عَاذِراً.

مَن كتَم سِرَّهُ جَهِلَ عَدُوُّهُ أَمْرَهَ.

مَن نَقَضَ عَهْدَهُ، ومَنَعَ رِفْدَهُ[1]، وأَظْهَرَ حِقْدَهَ، فلا خَيْرَ عِنْدَهَ.

---

(١) الرِّفْدُ: العَطاء.

مَنْ صاحبَ العلْماءَ وُقِّر، ومن جالَسَ السُّفَهاءَ حُقِّرَ.

مَن كَثُر مــــزاحهُ زالَتْ هَيْبَتُهُ، ومَنْ كَثُر خلافُهُ طابت غَيْبَتُهُ.

مَن عُرِفَ بالصِّدْقِ جاز كذبهُ، ومَن عُرِف بالكَذِبِ لم يَجُزْ صِدْقُهُ.

من نَجا برأسِهِ فقد ربِحَ.

من استَرْعَى الذئْب ظَلَم.

مَنْ أدَّبَ وَلَدَهُ صغيراً سُرَّ بهِ كبيراً.

مَن سألَ صاحبَهُ فوقَ طاقتِه فقد استوجَبَ الحِرمان.

من صانعَ بالمالِ لم يَحْتَشِمْ من طَلَب الحاجة.

مَن غَضَّ بَصَرَهُ عن عيُوب النَّاس، غَضُّوا أبصارَهُم عنه.

منَ نَهضَ إلى المَعالي ظَفِرَ بالمكان العالي.

مَن لم يركَبِ الأهوالَ لم ينَلِ الرَّغائبَ.

من استغنى كَرُمَ على أهله.

مَن غرسَ العلْمَ اجْتَنَى النَّباهَة، ومَن غرس التَّزهُدَ اجتَنى العزَّ، ومَن غرس الإحسان اجتَنَى المَحبَّة.

مَن لم يأسَ على ما فاتَهُ أراحَ قَلْبَهُ، ومَنْ قنِعَ بما هو فيه قرَّت عينُهُ.

**ومن الشِّعر في هذا الفصل قَولُهم:**

مَن عاشَ عَيْشًا حَميداً يَستَفيدُ به
في دينه ثُمَّ في دُنْيَاهُ إقْبالا
فَليَنْظُرَنَّ إلى مَن فَوقَهُ أدبًا
ولْيَنْظُرَنَّ إلى مَن دُونَهُ مالا

آخر:

مَن يَفْعَلِ الخَيْرَ لم يَعْدَمْ جَوازيَهُ
لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللّه والنَّاسِ

آخر:

مَن يَدَّعِ الحِلْمَ أغْضِبْهُ ليَعْرِفَهُ
لا يُعْرَفُ الحِلْمُ إلاَّ ساعةَ الغَضَبِ

آخــر :

مَن يزْرَعِ الخَيْرَ يحــصدْ مــا يُسَرُّ بــهِ

وَزارعُ الـشَّوكِ مَنكـوشٌ علـى الـرَّأسِ

# فصل ليس

**فمن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:**

«ليسَ الخَبَرُ كالمُعاينة».

«ليسَ بعد المَوْتِ مُسْتَعْتَب»

«ليسَ مِنّا مَنْ لم يوقِّرِ الكبير، ويَرْحم الصَّغير».

«ليسَ لكَ من مالكَ ما أكَلْتَ فأفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فأمضيتَ».

«ليسَ الأعْمَى مَنْ عَمِيَ بَصَرُهُ، إنّما الأعمى مَن عميت بصيرتُهُ».

«ليسَ بمؤمنٍ مَن لم يأمَنْ جارُهُ بوائقَهُ».

«ليسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ مُسْلِمًا أو ضَرَّهُ».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلفِ وغيرهم:**

ليسَ لِلَّئيمِ مِثْلُ الهَوانِ.

ليسَ يُعَدُّ حَكيمًا مَن لم يكُنْ لِنَفْسهِ خَصِيمًا.

ليسَ مِنَ العَدْلِ سرعةُ العَذْلِ.

ليسَ للأمورِ بصَاحِبٍ، مَن لم ينظُرْ في العَواقب.

ليسَ الحكيمُ بكثرة العِلْم، إنّما الحكيمُ في الانتفاعِ بهِ في العمل.

ليسَ من عادةِ الكرام سرُعةُ الانتقام.

ليسَ الأسيرُ مَن أوثَقَهُ عِداه، إنّما الأَسيرُ مَن أوثَقَهْ هواه قَسْرًا، أو أرهقَهُ خُسْرًا.

**ومن الشِّعر في هذا الفَصْلِ قولهم:**

ليسَ العَدُوُّ بِشَرٍّ
مِنَ الصَّديقِ الحَسُودِ

فَعَمِّ أمْرَكَ عَنْهُ
وَدارِهِ مِن بَعِيدِ

آخر:

لیسَ الكريمُ الّذي إنْ زلَّ صاحِبُهُ

بثَّ الّذي كانَ مِن أسْرارِهِ عَلِما

بلِ الكريمُ الّذي تبقى مَوَدَّتُهُ

ويحفَظُ السِّرَّ إنْ صَافَى وإن صَرَمَا

آخر :

ليسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَوْمِهِ

لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابي

آخر :

ليسَ الظَّريفُ بِكامِلٍ في ظَرْفِهِ

حتَّى يكونَ مِنَ الحَرَامِ عَفِيفا

آخر :

ليسَ النَّعِيمُ ولا الشَّقَاءُ بدائمٍ

لا بُدَّ للإقْبَالِ مِنْ إدبارِ

# فصل رُبَّ

**فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيُّ ﷺ:**

«رُبَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيه» .

«رُبَّ مَلومٍ لا ذَنْبَ لهُ»

«رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسهِ وهو لها مُهينٌ، ورُبَّ مُهينٍ لنَفسهِ وهو لها مُكرم» .

«رُبَّ طَرْفٍ أنَمُّ مِن لسانٍ» .

«رُبَّ صَلَفٍ[1] أدَّى إلى التَّلَف» .

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلَف وغيرهم:**

رُبَّ قولٍ أشَدُّ من صَوْلٍ.

رُبَّ أخٍ لكَ لم تَلِدْهُ أمُّك.

---

(١) الصَّلف : التِّيه والكبرياء .

رُبَّ عَجَلَةٍ تَهبُ رَيْثًا.

رُبَّ مملولٍ لا يُستَطاعُ فِراقُهُ.

رُبَّ عاجِلِ لَذَّةٍ قد أعقَبَتْ طُولَ حَسْرَةَ.

رُبَّ ساعٍ لِقاعِدٍ، آكِلٍ غيرِ حامِدٍ.

**ومن الشعر في هذا الفصل قولهم:**

رُبَّ حِلْمٍ أَضاعَهُ عَدَمُ المَا
لِ وَجَهْلٍ غَطَّى عليه النَّعيمُ

آخر:

رُبَّ مَهزولٍ سَمينٍ حَسَابُهْ
وسَمينِ الجِسْمِ مَهزولِ الحَسَبْ

آخر:

رُبَّ عَيْرٍ يَرعى ويعلفُ في الخِصْـ
ـبِ وليثٍ يجوعُ في الصحراء

# فصل الأعداد المذكورة قبل في الأحاديث والحكم والشِّعر

## فصل واحد

فَمِن الحديثِ الواردِ في ذلك عن النَّبيِّ ﷺ:

«طَلَبُ الدَّين أَحَد العُسْرَين».

«الزَّوجة الصَّالحة أحد الكَسْبين».

«قِلَّةُ العِيالِ أحد اليسارين»

ومن الحكمة المأثورة عن السَّلَفِ وغيرهم:

المشفِقُ أحد الوالدين.

العَيْنُ إحدى الرَّسولين.

العِشْقُ أحد الرِّقَّين.

اللِّسانُ أحد السَّيفين

الدَّهرُ أحد المؤدّبين.

السَّلامة إحدى الغَنيمتينِ.

المُبْلغُ أحد الشَّاتِمين.

**ومن الشِّعر في هذا الفصل قولهم:**

تأمَّلْ صُورَةَ العَدَدِ
فَمَن يَنظُرْ إليهِ هُدِي

كما الأعْدادُ راجِعَةٌ
وإنْ كَثُرَتْ إلى الأحَدِ

كذاكَ الخَلْقُ مَرْجِعُهُمْ
لِرَبٍّ واحِدٍ صَمَدِ

# فصل اثنين

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:

«اثنتان لا تُرَدَّان: الدُّعاء عند النِّداء، وعند اليأس».

«خلُقَان يُحبُّهما اللّهُ ورسولُهُ: الحِلْمُ والأناةِ، وخلقان يُبغِضهُما الله ورسولُهُ: البُخْلُ وسوء الخُلُق».

«قَطْرَتانِ مِن أفْضَلِ الأشْيَاء: قَطْرَة دَمٍ في سبيل اللّه. وقَطْرةُ دمعٍ من خشية اللّه».

«اثنان ليس في الدُّنيا أقَلَّ منهما، ولا يزدادان إلاَّ قِلّة: دِرْهَمٌ حَلال، وأخٌ في اللّه يُسْكَن إليه».

«منهومان لا يشبعان منهومٌ في العلم، ومنهومٌ في المال».

«شيئان لا يجتمعان: الإيمان والحَسد»

«صِنْفانِ من النَّاس إذا صلحا صلح النَّاس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء».

## ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:

اثنان مُعَذَّبان في الدُّنيا. رَجُلٌ أُعْطِي الدُّنيا فهو بها مَشْغُولٌ مُتْعَب، ورَجُلٌ فَقيرٌ زُوِيَتْ عنه الدُّنيا، فهو يَطلبُها، ونفسه تتقطَّعُ عليها حَسَرات.

شيئان لا يُعرفان إلاَّ بَعْدَ ذَهابِهما: الصِّحَّةُ والشَّبَابُ.

خصلتان فيهما خير الدُّنيا والآخرة: الغِنَى والتُّقَى.
وخصلتان فيهما شرُّ الدُّنيا والآخرة: الفقر والفُجور.

خصلتان من الكرم: إنصاف النَّاس من نفسك، ومواساةُ الإخوان.

شيئان العَجَلَةُ فيهما محمودة: إطعام الضَّيف إذا حَلَّ، وقضاء الدَّين.

خصلتان يحبُّهما العاقل ويكرههما الجاهل: الصَّبر عند النَّوائب، والعفو عند المقدرة.

ومن الشّعر:

اثنان لو بكت الدِّماء عليهما

عَيناي حتّى تُؤذنا بذَهابِ

لم يبلُغا المعشار َمِن حَقَّيْهما

فَقْدُ الشَّبابِ وفُرْقَةُ الأَحْبابِ

# فصل ثلاثة

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:

«ثلاثَةٌ مِنَ الموبقاتِ[1] فاحذروهنَّ: الحِرْصُ، والحَسَدُ، والكِبْرُ».

«ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتُهم: الإمام المقسِطُ، والصّائم حتى يفطر، والمظلوم».

«ثلاثة لا يُسأَلُ أحدٌ عنها يوم القيامة ما أنفق في مرضه، وفي إفطاره، وما أنفق في قِرى ضيفه».

«ثلاثة من نعيم الدُّنيا- وإن كان لا نعيمَ لها- : مركبٌ وطيء، والمرأة الصّالحة. ، والمنزل الواسع».

«ثلاثة مرحومون: عزيز قومٍ ذلّ، وغَنيُّ قومٍ افتقر، وصاحبُ دِيَنٍ رجع عن دِيْنِه».

(١) الموبقات: المهلكات من المعاصي والذنوب.

«ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: بَرٌّ من فاجر، وشريفٌ من دنيء، وحليمٌ مِن سفيه».

«ثلاثة لا يُعـرفـون إلاَّ في ثلاثة مـواطن: الحليم عند الغضب، والشُّجاع في الحرب، والأخ عند الحاجة».

«ثلاثة يطلبـون المرءَ وإنْ فَـرَّ منهم: الموتُ، والرِّزقُ، والمصيبةُ».

«ثلاثة يطلبـون مَن كُنَّ فـيـه فـهـو منافق: مَن إذا وعـدَ أخلف، وإذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا اؤتمنَ خان وثلاثة مَن كُنَّ فيه مؤمن. إذا قال صدق، وإذا وعد وفَى، وإذا أؤتمن لم يخُن».

«ثلاث مَنْ رُزِقـهنَّ فقـد جُمع له خير الدُّنيـا والآخرة: الرِّضـا بالـقـضـاء والقَـدر، والصَّبـر عند البـلاء، والدُّعـاء في الرَّخاء».

ثلاثٌ لن ينفعَ المرءَ بعد وفاته إلاَّ هُنَّ: صَدَقَةٌ تجري من بعده، وسنَّةٌ يُعمَل لها من بعده، وولد يدعو له».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

العَيش لثـلاث: سَعَـةُ المال، وكثرة الخَدَم، وموافقـةُ الأهل.

ليس لثلاث حيلة: فَقرٌ يخالطه كَسَل، وخصومة يداخلها حَسد، ومرضٌ يمازجه هَرَم.

ثلاثة لا يستخفُّ بهم عاقل: السُّلطان، والعالم، والصَّديق، لأنَّ مَن استخفَّ بالسُّلطان أفسد دُنياه، ومن استخفَّ بالعالم أفسد دينه، ومَن استخفَّ بالصَّديق أُفسد مروءته.

ثلاثةٌ لا يأنَفُ الكريم من القيام عليهم: أبوه، وضَيْفه، ودابّتُه.

كَدَرُ العَيْشِ في ثلاث: الجار السُّوء، والولَد العاقّ، والمرأة السَّيئة الخُلق.

ثلاثةٌ تنفع في الدُّنيا مع ثوابها في الآخرة: الحجُّ ينفي الفقر، والصّدَقة تَردُّ البلاء، والبِرُّ يزيد في العمر.

ثلاثةٌ تدلُّ على عقولِ أصحابها: الرَّسولُ، والكتابُ، والهديّة.

العَيْشُ في ثلاث: إقبال الزَّمان، وعِزُّ السُّلطان، وكثرة الإخوان.

ثلاثة لا يُشْبَعُ منهنَّ: الحياة، والعافية، والمال.

ثلاثة من الأفعال من علامات الأحمق: كثرة الالتفات من غير منادٍ ولا مُتكلّم، وسرعة الجواب والمسؤول غيره، والضَّحك في غير وقته.

ثلاثة من حقيقةِ الإيمان: الاقتصاد في الإنفاق، والابتداء بالسَّلام، والإنصاف في الأمور.

النِّساء ثلاث: فَهَيِّنَةٌ لَيِّنَةٌ، عفيفةٌ مُسلمة تُعين أُهلها على العَيْشِ، ولا تُعين العيش على أهلها. وأخرى وعاءٌ للولَد، وأخرى غلٌّ قَمْل يضعه اللّه في عنق من يَشاء، ويفكُّه عَمَّن يشاء.

ثلاثة أشياء مَن أخذها من الديِّك تمَّ بها أدبُه: سَخاؤه، وشجاعتُه، وغَيْرتُه.

وثلاثة من أخذها من الغراب تمّت بها مروءته: بكوره في طلب الرِّزق، وشدّة حذره، وستره سفاده.

ثلاثة ما اجتمعت في حُرّ: مُباهتة الرِّجال، والغَيبةُ للنَّاس، والملل لأهل المودّة.

والأُنسُ في ثلاثة: صديق تأمن منه في صداقَتِكَ ما يرتصدكَ به عدوك، وامرأة تسرُّكَ إن دخلتَ عليها، وتحفظُكَ إذا غِبْتَ، ومملوك يأتي كلَّ ما في نفسك حتّى كأنَّهُ يطّلع على غَيبكَ.

ثلاثة تُزري بالمرء: الحَسَدُ، والنَّميمةُ، والطَّيْش.

ثلاثة تُفسد المروءة: الشُّحُّ، والحِرصُ، والغضَبُ.

ثلاثة يصيرون أجنَّ المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء: الغضبان، والغيران، والسكران.

الأيادي ثلاث: بيضاء، وخضراء، وسوداء. فاليد البيضاء: الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء: المكافأة على المعروف، واليد السّوداء: المَنُّ بالمعروف.

احذر ثلاثًا: الكِبْرُ، والغضب، والطَّمع.

تَلَقَّ النِّعمة من اللّه بثلاث: كثرة الشُّكر، ولزوم الطّاعة، واجتناب المعصية.

من الشِّعر:

ثلاثٌ بهـــا نلْتُ المعـــالي والغِنَى
وأصبحت مُعتَزَّ الجنَابِ مُمَوَّلا

طويتُ على قصدِ المروءة باطني
وفي ظاهري أبديتُ فيه التَّجمُّلا

وأغْضَيْتُ عمّا في يد الخلقِ ناظري
وأبصرتُ ما اللّهِ عندي أفضلا

# فصل أربعة

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:

«أربع من سُنَن المرسَلين: الخِتانُ، والسِّواكُ، والتَّعطُّرُ، والنِّكاحُ».

«أربع يذهبنَ ضَيَاعًا: الأكل مع الشّبع، والسِّراج في القمر، والزَّرع في السَّبْخة، والصَّنيعةُ في غير أهلها».

«أربع خصالٍ من سعادة المرء: أن تكون زوجته صالحة، وولده أبرارًا، وخُلطَاؤه صالحين، ومعيشتُه في بلاده».

أربعٌ من كُنَّ فيه وجبتْ له الجنَّة. مَن ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يغضب، وحين يشتهي».

«من اجتنبَ أربعة دخل الجنَّة: الدِّماء، والأموال، والفُروج، والأشربة».

«أحبُّ الكلام إلى الله أربعٌ، لا يضركَ بأيهنَّ بدأت. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر».

«أربعة مواطن يُستجابُ بها الدُّعاء، وتُفتح أبواب السَّماء: عند التقاء الصَّفَّين في سبيل اللّه، وعند نزول الغَيث، وعند إقامة الصَّلاة، وعند رؤية الكعبة».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلَف وغيرهم:**

أربعة يسودُ بها المرء: الأدب، والعِلم، والعِفَّة، والأمانة.

أربعة ينبغي للعاقل أن يمنع نفسه منها: العَجَلَةُ، واللَّجاجَةُ، والعُجْبُ، والتَّواني.

أربع لا يُستطاعُ إشباعُهنَّ: النَّار من الحطب، والبحر من الماء، والموت من الأرواح، والشَّرَهُ من المال.

أربعٌ إذا كُنَّ في الرَّجل أهلكنَه: محبَّةُ النِّساء، والقِمار، والصَّيد، والخمر.

أربعة أعداء المؤمن: شيطان يُضلّه، وكافر يقاتله، ومنافق يفتنه، ومؤمن يحسده.

أربع كلمات اجتمعت العرب والعجم عليها. لا تحملنَّ على قلبك ما لا يطيق، ولا تعملنَّ عملاً ليس لكَ فيه منفعة، ولا تثق بامرأة، ولا تغترَّ بمالٍ وإن كثر.

أربعة تذهب ماء الوجه: الكذب، والوقاحة، والتَّكبُّر، والنَّظَر إلى المقتول.

أربعة تزيد ماء الوجه: الوفاء بالعهد، والكَرم، والكلام الطَّيِّب، وطاعة الله سبحانه وتعالى.

أربعة لا تُدركُ بأربع: الشَّبابُ بالخضاب، والغنى بالمنى، والبقاءُ بالدَّواء والصحّة بالحمية.

أربع من كنوز البرِّ: كتمان الفاقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الوجع، وكتمان السرِّ.

أربع ترفع الرَّجُل إلى أعالي الدَّرجات وإنْ قلَّ علمه: الحلم، والتّواضع، والسَّخاء، وحسن الخلق.

أربعة تؤكّد المحبَّة: حُسن البِشْر، وبذل البِرِّ، وقصد الوفاق، وترك الشّقاق.

أربعة من علامات الكرم: بذلُ النَّدى، وكفُّ الأذى، وتعجيل المثوبة، وتأخير العقوبة.

وأربعة من علامات اللُّؤم: إفشاءُ السِّرِّ، واعتقادُ الغدر، وتغيبة الإخوان، وإساءة الجوار.

أربعة من علامات الإيمان : حُسن العفاف، والرِّضا بالكفاف، وحفظ اللِّسان، واعتقاد الإحسان.

أربعة تتولّد من أربعة : الشَّرُّ من الممازحة، والبُغضُ من المكادحة والوحشة من الخلاف، والنَّبْوَة[1] من الاستخفاف.

أربعة لا تنتصف من أربعة : الشّريف من الدّنيء، والرَّشيد مِن الغويّ، والبَرُّ مِن الفاجر، والمنصف من الجائر.

أربعة تؤدي إلى أربعة : الصَّمت إلى السَّلامة، والبِرُّ إلى الكرامة، والجود إلى السِّيادة، والشُكر إلى الزّيادة.

أربعة تعرف بأربعة : الكاتب بكتابته، والعالم بجوابه، والحكيم بأفعاله ، ،والحليم باحتماله.

أربعة لا تستغني عن أربعة الرَّعيّة عن السّاسة، والجيش عن القادة، والرأي عن الاستشارة، والعَزْمُ عن الاستخارة.

أربعة تقوّي البدن : أكلُ اللحم، وشمُّ الطِّيب، وكثرة الغُسل من غير جماع، ولبس الكتّان.

أربعة تمرض الجسم : الكلام الكثير ، والنَّوم الكثير ، والأكل الكثير ، والجماع الكثير .

---

(١) النبوة : الجفوة.

أربعة تقوّي البصر : الجلوس مستقبل القِبْلة، والكُحل عند النَّوم، والنَّظر إلى الخضرة، وتنظيف المجلس.

أربعة إذا أفسدهم البَطَر، لا تزيدهم التكرمة إلاّ فَساداً: الزَّوجة، والولد، والخادم، والرَّعية.

السعادة أربع: سلامة الخلق، وجودة العقل، وتأنّي المطلوبات، والمحبَّة في النَّاس.

الرِّجال أربعة: رجل يدري، ويدري أنّه يدري، فذلك عالم فَسَلوهُ. ورجل يدري، ولا يدري أنّه يدري، فذلك غافلٌ فنبّهوه. ورجل لا يدري، ويدري أنّه لا يدري، فذلك مسترشد فعلّموه، ورجل لا يدري، ولا يدري أنّه لا يدري، فذلك جاهل فارفضوه.

أركان الدِّين والدُّنيا أربعة: الصَّبر، والصِّدق، والحِلم، والوفاء.

أربعة لا يدري قدرها إلاّ أربعة: لا يعرف قدر الحياة إلاّ الموتى، ولا قدر الصِّحَّة إلاّ المرضى، ولا قدر العافية إلاّ أهل البلاء، ولا يعرف قدر الغِنى إلاّ الفقراء.

ومن الشّعر:

بأربعــــةٍ أرجـــو نجـــاتي وإنّهـــا

لأكـــرمُ مَـــذْخـــورٍ لديَّ وأعْظَمُ

شـهـادةُ إخـلاصي وحُـبّي مـحـمّـداً

وحُـــسْنُ ظنوني ثـمّ إنّي مُـــسْلمُ

# فصل خمسة

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:

«خمسٌ لا يجتمعنَ إلاَّ في مؤمنٍ حقًّا: النُّور في القلب، والفقه في الإسلام، والورع في الدِّين، والمودَّة في النَّاس، وحسن السَّمت في الوجه».

«خمس يفطرن الصَّائم وينقضنَ الوضوء: الغَيبة، والنَّميمة، والكذب، والنَّظرة بالشَّهوة، واليمين الغَموس»[1].

«خمس دعوات لا تُرَدُّ: دعوة الغازي حتّى يرجع، ودعوة المريض حتّى يبرأً، ودعوة المظلوم، ودعوة الصائم حتّى يفطر، ودعوة الرَّجل لأخيه بظهر الغيب».

«خمسٌ لا يتعدّاهُنَّ كُلُّ عبد: عمله، وأَجَلُه، وأثَرُهُ، ورِزقُهُ، ومَضجعهُ»

---

(١) اليمين الغموس: الكاذبة التي يتعمدّها صاحبها عالمًا بأن الأمر بخلافه، وهي التي تغمس صاحبها في الإثم.

«خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منهنَّ فلا إيمانَ له: التَّسليم لأمر اللّه، الرِّضا بقضاء اللّه، والتَّفويض إلى اللّه، والتَّوكُّل على اللّه، والصَّبر عند الصَّدمة الأولى».

«خمس خصالٍ من السَّعادة: اليقين في القلب، والورع في الدِّين، والزُّهد في الدنيا والحَياء، والعَمل.

«خمس خصال من الشَّقاء: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلّة الحياء والرَّغبة في الدُّنيا، وطول الأمل».

## ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:

خمسة تقبح بخمسة: ضيق الذّرع بذي المال، وسرعة الغضب بالعلماء، والبَذاء بالنَّساء، والمرض بالأطبّاء، والكذب بالقُضاة.

مفاتيح الأرزاق خمس: حُسن الخُلق، وحُسن الجوار، وكَفُّ الأذى، وصِدق الحديث، وأداء الأمانة.

قال عليّ رضي الله عنه: خمسٌ خذوها عنّي: ألا لايرجُوَن أحدٌ إلاّ ربّه، ولا يخافَنَّ إلا ذَنْبَه، ولا يستنكف أن يتعلّم ما ليس عنده، وإذا سئل عمّا لا يعلم فليقلْ: لا أعلم، والصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجَسد.

ومن الشعر:

أقبل على صَلواتِك الخمسِ

كم مُصبحٍ عَساه لا يُمسي

واستقبلِ اليومَ الجديدَ بتَوبةٍ

تَمحو ذنوبَ صحيفةِ الأمسِ

# فصل ستة

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النّبيِّ ﷺ:

«ستٌّ خصالٍ من لقي اللّه تعالى ولم يعمل بهنَّ دخل الجنَّة: لم يشرك باللّهِ شيئًا، ولم يسرق، ولم يزنِ، ولم يرمِ محصنّة، ولم يَعصِ ذا أمر، ويقول الحقّ أو يصمت».

«ستٌّ خصال اكفلوهنَّ لي أكفل لكم الجنَّة: الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، والبَطن، واللِّسان، والفَرج».

ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:

«ستٌّ خصال مَن كُنَّ فيه فهو إنسانٌ كامل: الألفةُ، والحياءُ، والأدبُ، والأَنَفَةُ، والشُكر، والرَّجاء.

«ستة لا بقاءَ لها: ظلُّ الغَمام، وخلّة الأشرار، وعِشق النِّساء، والمالُ الكثير، والسُّلطان الجائر، والثَّناء الكاذب.

فروع الشَّرِّ ستّة: حُبّ الدُّنيا، وحُبُّ الرِّياسة، وحُبُّ الثَّناء، وحُبُّ الشِّبَع، وحبّ النَّوم، وحُبُّ الراحة.

ستة لا تفارقهم الكآبة: حديثُ عهد بغِنىً، ومكثر لا يخاف على ماله، وطالب مرتبة فوق صدره، والحسود، والحقود، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب.

من جمع ستَّ خصال لم يدع للجنّة مطلبًا، ولا عن النَّار مهربًا: مَن عرف ربَّه فأطاعه، وعرف شيطانه فعصَاه، وعرف الحقَّ فاتَّبعه، وعرف الباطل فاتّقَاه، وعرف الدُّنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها.

**ومن الشّعر:**

ستٌّ بليتُ بها والمُستَعاذُ به
مِن شرِّها مَن إليه الخَلْقُ يبتهلُ

نفسي وإبليس والدُّنيا الّتي فتنت
مَن قَبلنا، والهوى والحرصُ والأمَلُ

إن لم تكن منك يا مولايَ واقيةٌ
مِن شَرِّها فقد أعيتْ عَبْدكَ الحِيَلُ

# فصل سبعة

فَمِن الحديثِ الواردِ عن النَّبيِّ ﷺ:

«سبعة يُظلّهم اللّه في ظِلّه يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظلُّه: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبهُ معلّق بالمسجد حتّى يرجع إليه، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه، ورجل ذكر اللّهَ خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما أنفقت يمينه».

ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:

سبع خصال من كانت فيه لم يعدم سبعًا: من كان ذا وفاء لم يعدم المنّة، ومن كان صدوقًا لم يعدم القبول، ومن كان شكورًا لم يعدم الزِّيادة، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم السُّؤدَد، ومن كان منصفًا لم يعدم العافية، ومن كان متواضعًا لم يعدم الكرامة.

سبع خصال لا توجد معهنَّ غربة: حُسن الأدب، واجتناب الرِّيب، وكفُّ الأذى، وسعة الخلق، واحتمال الصبر، وجميل العشرة، وصحبة النَّاس على أخلاقهم.

**ومن الشِّعر:**

جاءَ الصِّيامُ ومن صاداته بِيدي
سبعٌ، فقد أكسَبَتني بالقَبول ثِقهْ

صوفيّتي وصفائي في صَلاحيتي
والصَّبرُ، والصَّونُ، ثمّ الصِّدقُ والصَّدَقهْ

## فصل ثمانية

قال المؤلف: لم أجد في هذا الفصل حديثًا عن النَّبيِّ ﷺ:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسَن رضي الله عنه: يا بنيّ؛ احفظ عنيّ هذه الثمانية خصال لا يضرُّك ما عملتَ بهنَّ شيءٌ: أغنى الغنَى العقل، وأكبر الفقر الحُمق، وأوحش الوحشة العجُب، وأكرم الحَسَب حُسنُ الخلق، وإيّاكَ ومصاحبة الأحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك، وإيّاك ومصادقة الكذّاب فإنّه يقرّب لك البعيد، ويبعد عنك القريب، وإيّاك ومصادقة البخيل فإنّه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه، وإيّاك ومصادقة التّاجر فإنّه يبيعك بالتّافه اليَسير.

**ومن الحكمة المأثورة عن السّلف وغيرهم:**

ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلاّ أنفسَهم: الآتي إلى صنيع

لم يُدْعَ إليه، والمتأمِّر على ربِّ البيت في بيته، والدَّاخل بين اثنين في حديث لم يُدخلاه فيه، والمستخفُّ بالسُّلطان، والجالس مجلسًا ليس فيه بأهل، والمقبل بحديث على من لا يسمعه. وطالب الخير من أعدائه، وطالب الفضل من اللِّئام.

**ومن الشعر:**

ثمانيةٌ قامَ الوجودُ بها فَهلْ

ترى من مَحيصٍ للورَى عن ثمانيهْ

سرورٌ وحُزنٌ واجتماعٌ وفُرقَةٌ

وعُسْرٌ ويُسْرٌ ثمَّ سُقمٌ وعافيهْ

بهنَّ انقضت أعمارُ أولادِ آدمٍ

فهل مَن رأى أحوالهَم متساويهْ

# فصل تسعة

فمن الحديث الوارد عن النَّبيِّ ﷺ:

«أمرني ربِّي بتِسع خصال: الإخلاص في السِّرِّ والعلَن، والعدل في الرِّضَى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمّن ظلمني، وأصِلَ من قطعني، وأُعطي مَن حرمني، وأن يكون نُطقي ذِكْرًا، وصمتي فكرًا، ونظري عبرةً».

ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:

تسعة أشياء تحتاج إلى تسعة لا تصلح إلاّ بها، ولا تحسن إلا معها، العقل محتاج إلى التجارب، والنَّجدة إلى الجدّ، والحَسَب محتاج إلى الأدب، والسُّرور محتاج إلى الأمن، والقرابة محتاجة إلى الصداقة، والشَّرف محتاج إلى التَّواضع، والعمر محتاج إلى الصِّحَّة، والمال محتاج إلى الكفاية، والاجتهاد محتاج إلى التوفيق.

شروط العلم تسعة : العقل، والفطنة، والذكاء، والشُّهرة، والكفاف من العيش ، والفراغ، وعدم المانع، وطول العمر، ومعلم عارف سمح .

**ومن الشِّعر:**

بتسعٍ يُنالُ العلم : قوتٌ وصحَّةٌ

وحِرصٌ وفهمٌ ثاقبٌ في التَّعلُّمِ

ودرسٌ وحفظٌ للعلوم وهِمَّةٌ

وشَرْخُ شبابٍ واجتهادُ مُعلِّمِ

## فصل عشرة

**فمن الحديث الوارد عن النَّبيِّ ﷺ:**

«سهامُ الإسلام عشرة خاب من لا سهم له فيها: أولّها: شهادة أن لا إله إلا اللّه، وهي المِلّة. والصَّلاة، وهي الفِطْرَة. والزَّكاة، وهي الطُّهر. والصِّيام، وهو الجنَّة. ،والحَجُّ، وهو الشّريعة. والجهادُ، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. والطَّاعة، وهي العِصْمة. والجماعة، وهي الإلْفَة، والغُسْلُ من الجنابة، وهي السَّريرة».

**ومن الحكمة المأثورة عن السَّلف وغيرهم:**

عشرة من أخلاق العاقل: الحِلْم، والعِلْم، ،والرُّشْد، والعَفاف، والتَّعاون، والحياء ، والرَّزانَة، والمُداومة على الخَير، وكراهيةُ الشَّرِّ، وطاعةُ النَّاصح.

ومن الشعر :

إنَّ المكارمَ أخلاقٌ مُطَهَّرَةٌ فالعَقلُ أوّلُها والدِّينُ ثانيها

والعِلم ثالثُها والحِلْمُ رابعُها والصَّبرُ خامِسُها والصِّدقُ ساديها

والشُّكر سابعُها والجودُ ثامِنُها والرِّفقُ تاسِعُها واللِّينُ عاشيها

والنَّفسُ تعلمُ مِن عَيني مُحَدِّثُها إنْ كانَ من حِزْبِها أو مِن أعاديها

ولستُ عُمري في حالٍ أُصَدِّقُها ولا أرى الرُّشْدَ إلاّ حينَ أعْصِيها

# القسم الثّاني

## في السُّؤدَد، والمروءة، ومكارم الأخلاق،ومداراة الناس والتأدُّب معهم في حالي الغنى والإملاق

اعلم أنَّه يجب على الإنسان أن يتخلّق بالأخلاقِ الموجبة للسيِّادة، ويعتني في طلب المكارم، والمجادة، وألاَّ يتشاغَلَ عنها بِسواها، ولا يصرف هِمتَّه إلى ما عَداها.

قال رسول اللّه ﷺ:

«مَن أسرع به عَمَلُهُ لم يبطئ به حَسَبُهُ، ومن أبطأ به عَمَلُهُ لم يُسرعْ به حَسَبُهُ»

قال حكيم لحكيم: ما السُّؤددُ؟ فقال: اصطناع العشيرة، واحتمالُ الجريرة. قال: فَما الشَّرَفُ؟ فقال: كفُّ الأذى، وبذلُ النَّدى. قال: فما الثَّناءُ؟ فقال: استعمال

الأدب، ورعايةُ الحَسَب. قال: فما المجدُ؟ فقال: احتمالُ المغارم، وابتناءُ المكارم.

قال: فما المروءة؟ قال: عرفانُ الحقّ، وتعاهد الصَّنيعة، قال: فما السَّماحة؟ فقال: حُبُّ السَّائل، وبذلُ النَّائل. قال: فما الكَرَم؟ فقال: صِدقُ الإخاء في الشِّدَّة والرَّخاء.

قال رسول الله ﷺ: «مكارم الأخلاق عشرةٌ تكون في الرَّجل ولا تكون في ابنه، وتكونُ في الابنِ ولا تكونُ في أبيه، وقد تكون في العبد ولا تكون في سيّده، يقسمها اللّه تعالى لمن أراد به السَّعادةَ، وهي: صِدْقُ الحديث، وصدقُ البأس، وألا يشبعَ وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السَّائل، والمكافأة بالصَّنائع، وحفظ الأمانة، وصِلةُ الرَّحم، والتَّذَمُّم للصَّاحبِ، وقِرى الضّيف، ورأسهنَّ الحياء.

قال بعضهم: وشَرَفُ الوالد جزء من ميراثه، مُنتقلٌ إلى ولده كانتقال ماله، فإنْ رعى وحرس ثبتَ وازدادَ، وإنْ أهملَ وضيَّع هلكَ وبادَ.

وكذلك شرفُ الولد يَعمُّ القبيلةَ، وللوالدِ منه الحظُّ الأكبر، والقِسم الأوفر.

قال أبو علي حسن بن رشيق: والذي يقع عليه الاختيار عندهم قول المتوكّل اللَّيثي:

إنّا وإن أحسابُنا كرُمَتْ
لَسْنا على الأحسابِ نتّكِلُ

نَبني كما كانت أوائلنا
تبني ونَفعل مثلما فَعلوا

وقول عامر بن الطُّفَيل:

وإنّي وإنْ كنتُ ابنَ سيِّد عامر
وفارسَها المشهورَ في كُلِّ مَوْكِبِ

فَما سَوَّدتني عامرٌ عن وراثةٍ
أبى اللّهُ أن أسمو بأُمٍّ ولا أبِ

ولكنّني أحمي حِماهَا وأتَّقي
أذاَها وأرمي مَن رَماها بِمِقْنَبِ[1]

---

(١) المِقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المئة، تجتمع للغارة.

قال بعض الحكماء: من جَمع إلى شرفِ أصله شرفَ نفسه فقد استدعى الفضل بالحجّة، ومن أغفل نفسه، واعتمد على شرف آبائه فقد عقَّهم واستحقَّ ألاَّ يقدم بهم على غيرهم.

والافتخار نوعان: فخر الإنسان بنَفسهِ، وفَخرهُ بِسلَفهِ، والكمال في الجمع بين الأمرين.

قال الشاعر:

مــا السُّؤددُ المكســوبُ إلاّ دونَ مــا
يـومـي إليـــــــه السُّؤددُ المـولـودُ
فـإذا همـا اجـتَمـعـا تكسَّرَتِ القَنَا
إنْ غُولِبـا وتَضـعـضَعَ الجلمـودُ

قال أبو عمرو بن العلاء: كان أهل الجاهلية لا يُسوِّدون إلاَّ مَن كانت فيه ستُّ خصال، وتمامها في الإسلام سابعة: السَّخاء، والنَّجدة، والصَّبرُ، والحِلْمُ، والبيانُ، والحَسَبُ، وفي الإسلام زيادة: العفَاف.

وقيل لقيس بن عاصم: بِمَ سَوَّدكَ قومُك؟ قال: بكفِّ الأذى، وبذل النَّدى، ونُصرة المولى.

وقال الأشعث بن قيس يومًا لقومه: إنّما أنا رجل منكم، ليس لي فضلٌ عليكم، لكني أبسطُ لكم وجهي، وأبذل لكم مالي، وأقضي حقوقكم، وأحوط حريمكم، فَمن فعل مِثل فعلي فهو مثلي، ومن زاد عليّ فهو خير منّي، ومَن زدتُ عليه فأنا خيرٌ منه، قيل له: يا أبا محمد ما يدعوك إلى الكلام؟ قال: حضّهم على مكارم الأخلاق.

قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق».

ولما أُتي ﷺ بسبَايا طيِّء، كانت في السَّبايا جاريةٌ جميلةٌ فَصيحةٌ، فقالت: يا رسول الله، بل يا مُحمَّد، هلك الوالد، وغاب الرَّافد، فإن رأيتَ أن تُخَلِّيَ عنِّي، ولا تُشمت بي أحياءَ العرب فإنّي بنت سَيِّد قومي، كان أبي يفكُّ العاني، ويحمي الذِّمار، ويقري الضَّيف، ويشبع الجائع ويُفَرِّج عن المكروب، ولم يردُدْ سائلاً قَطُّ، أنا بنتُ حاتم الطَّائي. فقال رسول الله ﷺ: هذه صفة المؤمن، ولو كان أبوك مُسلمًا لتَرحَّمْتُ عليه، خَلُّوا عنها فإنَّ أبَاها كان يُحب مكارمَ الأخلاق.

قيل لعرابة الأوسيّ: بمَ سَوَّدَك قومُك؟ قال: بأربع خلال: أنخدع لهم في مالي، وأذلُّ لهم في عِرضي، ولا أحقر

صَغيرهم، ولا أحسد كبيرهم، وفي عرابة الأوسي يقول الشّاعر:

رأيتُ عَرابةَ الأوسيَّ يسمو
إلى الخيراتِ منقطعَ القرينِ

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمَجْدٍ
تلقَّاها عرابةُ باليَمينِ

وقال أبو الطَّيِّب:

إذا لم يكنْ للمرءِ فَضْلٌ ولم يكُن
يدافعُ عن إخوانهِ لم يُسَوَّدِ

وكيف يسودُ النَّاسَ مَن كانَ دَهْرَهُ
بلا مِنَّةٍ منه عليهم ولا يدِ

وكان أسماءُ بنُ خارجة الفزاريّ سيّدَ أهلِ الكوفة، فقالَ له يومًا عبدُ الملكِ بن مروان: ما أشياء تبلغني عنكَ يا أسماء؟ فقال: يُحدِّثك غيري عنّي يا أميرَ المؤمنين، فقال عبد الملك: وعلى ذلك فأحِبُّ أن أسمعها منكَ يا أسماء، فقال: نعم، يا أمير المؤمنين: ما مَددتُ رجلي بين يدي جليس لي قطُّ مخافة

أن يَرَ أنّي تكبَّرتُ عليه، ولا سألني رجل قطُّ حاجةً إلاَّ كان أكبر همّي من الدُّنيا قَضاء حاجته، ولا أكل رَجل قطُّ عندي أكلةً إلاّ كان له الفَضلُ عليَّ أيّام حياتي، ولا ظَلمني رجل قَطُّ بمَظْلَمة ألاَّ رأيتُ عقوبتَهُ العفو عنه، فقال عبد الملك: حسبُكَ بهذا شرفًا يا أسماء، ثم أنشد عبد الملك يقول:

إذا ما مات خارجة بن حصنٍ
فلا مطرت على الأرضِ السَّماءُ

ولا رجعَ الوفورُ بغنمِ عيشٍ
ولا حملت على الطُّهر النِّساءُ

ليومٌ منكَ خيرٌ من أناسٍ
كثيرٍ حولهم نَعَمْ وشَاءُ

فبوركَ في بَنيكَ وفي بَنِيهم
إذا ذُكروا ونحنُ لكَ الفِداءُ

وهذه الأبيات لعبد الله بن الزُّبير الأسدي في مدح أسماء بن خارجة المذكور.

قال الشّاعر:

والابنُ ينشأُ على ما كانَ والدهُ

إنَّ العُروقَ عليها ينبتُ الشَّجَرُ

ومن محض النَّصيحة بمقتضى مضمون هذا الباب قول ابن دريد:

وإنَّما المرءُ حديثٌ بعدهُ

فَكُن حديثًا حَسَنًا لِمَن وَعَى

وقد قال المُفَسِّرون في قول اللّه -عزَّ وجَلَّ- عن خليله إبراهيم، صلوات اللّه، سلامه على نبيِّنا وعليه: ﴿**واجعل لي لسانَ صدقٍ في الآخرين**﴾ (الشعراء: ٨٤) أي ثناءً حسنًا.

قال قسٌّ بن ساعدة: مَن فاته حَسَبُ نفسه لم ينفعه حَسَبُ أبيه.

وقيل لبعض الحكماء: متى يبلغ الرَّجل درجة الكمال؟ قال: إذا اتّقى مَن خَلَقَه، وجاد بما رزقه، فذاك الذي أنهجَ إلى الكمالِ طُرُقَه.

قال عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى جعل مكارم الأخلاق، محاسنها وصلاً بينكم وبينه، بحسب الرَّجُل أن يتَّصلَ إليه بخُلُق منها.

وقال بعضهم: إذا رغبتَ في المكارم، فاجتنبِ المحارم.

قال بعض الحكماء: مَن أخذ نفسَهُ بمكارم الأخلاق، جرى مِنَ الفَضْلِ في ميدان السِّباق، فاستوجبَ حُسْنَ الثَّناءِ بالاستحقاق.

قال عمرو بن العاص: في كل شيء سرف، إلاّ في ابتناء مَكْرُمَة، واصطناع معروف.

وقال الشَّاعر:

إذا أعجبتكَ خصال امرىءٍ
فَكُنْهُ تَكُنْ مِثلَ ما يُعجبكْ
فليسَ على المجدِ والمكرماتِ
إذا جئتها حاجبٌ يحجبكْ

# الفصل الأول
# في الأدب

قالت الحكماء: الأدب أحد المُنصفين.

وقالوا: نِعْمَ العَونُ لمن لا عونَ له الأدبُ.

وقال الأحنف: الأدب نور العقل، كما أنَّ النَّار في الظُّلمة نور البصر.

واعلم أنّ الأدب - كما قيل - أربعة: أدب لسان، وأدب جَنان[1]، وأدب زمان، وأدب إيمان. فأدب اللّسان الفصاحة والبلاغة، وذكر ما صدر عن أربابها. وأدب الجَنان: الانقياد، والسُّهولة والتَّزين بهما، وأدب الزَّمان: سيرة كبراء أهله في مخاطباتهم وتصرّفاتهم، وحفظ أخبارهم، وأدب إيمان: ما جاء به الشَّرع من المحاسن المكملة في الأخلاق والأقوال والأفعال.

---

(١) الجنَانُ: القلب أو روعه.

وقيل: التّأدُّبُ نوعان: ما يلزم الإنسان في تأديب ولده، أو فيمن يلزمه تأديبه، وهو أن يأخذه بمبادئ الأدب ليأنس بها حتّى تصير له كالطّبع، وما يلزم الإنسان في تأديب نفسه. فأما ما يلزم الإنسان في تأديب نفسه فقسمان: أدب مواضعة واصطلاح، وأدب رياضة واستصلاح.

فالأوّل: ما اصطلح عليه العقلاء، واستحسنه الأدباء.

والثاني: ما هو محمول على حال لا يجوز في العقل أن يكون على خلافها.

قال المفضّل: رأس الأدب معرفة الرّجل نفسه.

وقال بعضهم: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلاّ بفعل، ولا في مال إلاّ بجود، ولا في صدق إلاّ بوفاء، ولا في فقه إلاّ بورع، ولا في صَدَقة إلاّ بنِيَّة.

ولمّا دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن ماء السّماء، وهو إذ ذاك ملك الحيرة واليمامة. وكان ضمرة ذا عقل وعلم، وحلم وحكمة وشجاعة، إلاّ أنّه كان دميم الخلقة؛ قصير القامة، وكان ذكره قد شاعَ في الآفاق لما فيه من الخصال المحمودة، فلمّا راه المنذر احتقره لدمامة خلقته وقِصَر قامته.

فقال: سماعك بالمعيديّ خير من أن تراه فقال له ضمرة: أيّها الملك ليس المرء بحسنه وجماله، وبهائه وكماله، وهيئته وثيابه، لا واللّه حتّى يُشرّفه أصغراه: لسانه وقلبه، ويعلو به أكبراه: همّته ولُبُّه (١). وقد قال الشاعر:

وما المرء إلاّ الأصغران لسانُه
ومِقولُهُ، والجسمُ خلْقٌ مُصَوَّرُ

وفي هذا المعنى قول بعضهم:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجب
زيادتُهُ أو نقصُهُ في التكلُّمِ
لسانُ الفتى نصفٌ، ونصفٌ فؤادُهُ
فلم يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدَّمِ

وقولهم: فلانٌ لا أصل لهُ ولا فَصْل. الأصلُ: الحَسَبُ. والفَصْلُ: اللّسان.

قالت الحكماء: جاهُك بالمال إنّما يصحبك ما صحبكَ المال، وجاهُك بالأدب غير زائل.

---

(١) اللُّبُّ: العقل.

قال عليّ بن الجهم :

لو قيل لي : تملك الدُّنيا بأجمعها

ولا تكون أديبًا تُحسنُ الأدبَا

لَقُلتُ : لا أبتغي هذا بذاكَ ولا

أرى إلى غيره مُستدعيًا أربا

لَجَلْسَةٌ مع أديبٍ في مُذاكرةٍ

أنفي به الهَمَّ أو أستجلبَ الطَّربا

أشهى إليَّ من الدُّنيا وزُخْرُفِها

ومثلها فضَّةً أو ملئها ذَهَبا

وقال بزرجمهر : ما ورّث الآباءُ الأبناءَ خيراً من الأدب ، لأنَّ بالأدب يكسبون المال وبالجهل يتلفونه .

قال الشاعر :

يطيب العيشُ إن تلقى أديبًا

غذاهُ العلمُ والرَّأيُّ المُصيبُ

فيكشفُ عنكَ حيرةَ كُلِّ جَهلٍ

وفَضْلُ العلمِ يعرفهُ الأديبُ

وقالت الحكماء: الأدبُ أفضلُ من الحَسَب، لأنَّ الرَّجُلَ ينطقُ به فيُعْرَف قبل حَسَبه، ومن فقدَ نَسَبَهُ نهضَ به أدبُه.

وقد جمع اللّه تعالى لنبيّه ﷺ جملة من الأدب في قوله سبحانه: ﴿**إنَّ اللّه يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ، وإيتاءِ ذي القُربى، وينهى عن الفَحشاءِ والمنكر والبغي يعظكُم لعلَّكم تذكّرون**﴾ (النحل: ٩٠) وأمر بذلك عباده، فيجب على الإنسان أن يؤدِّبَ نفسه قبل أن يؤدِّبَ لسانه، وأن يهذّبَ أخلاقه قبل أن يهذّب ألفاظه.

قال أبو بكر بن شيبة: قيل للعبّاس بن عبد المطّلب رضي الله عنه: أأنت أكبر أم رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم؟ قال: هو أكبر منّي، وأنا أسَنُّ منه.

وقال بعضهم: الأديب من اعتصم بعزّ الأدب من ذلّة الجهل لم يتورّط في هفوة، وكان أدبه زُلْفة[1] في دنياه وأخراه.

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيت رجلاً أكمل أدبًا، ولا أجمل عِشْرةً من أبيكَ؛

(١) الزُلْفة: القربة والمنزلة.

وذلك أني سهرتُ معه ليلةً، فبينما نحن نتحدّث إذ غشى المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين قد غشى المصباح، أفنوقظ الغُلام ليصلح المصباح؟ فقال: لا تفعل. فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه؟ فقال: لا، لأنه ليس من المروءة أن يستخدم الإنسانُ ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحطّ رداءه عن منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت، وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس، ثمّ قال: قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلستُ وأنا عمر بن عبد العزيز.

ووصف الشَّعبيُّ أدبَ عبد الملك بن مروان فقال: والله ما أعرفه قطُّ إلاّ آخذاً بثلاثٍ تاركًا لثلاث: آخذاً بحسن الحديث إذا حدَّث، وبحُسن الاستماع إذا حُدِّثَ، وبأيسر المؤونة إذا خُولِفَ، تاركًا للمحاورة مع اللَّئيم، ومماراة السَّفيه، ومنازعة اللَّجوج.

قال بعض الحكماء: من لزم الأدب أمن العطب.

وقال بزرجمهر: أفضل منازل الشَّرف لأهل العلم والأدب.

وتكلّم عند عبد الملك بن مروان رجل، وذهب كلّ مذهب، فأعجبَ عبدَ الملك فقال: ابنُ مَن أنت؟ فقال: ابنُ نفسي التي توسَّلت بها إليك.

قال عمر بن الخطّاب: من قعد به أدبُه لم يرفعه حَسَبُه.

قال محمد بن الحنفيّة: أفضلُ ما ورّث الآباءُ الأبناءَ الأدبُ النّافعُ، والثّناءُ الحَسَن، والإخوان الصّالحون.

وقيل لأرُسطاطاليس: ما أحسنُ الحيوان؟ قال: الإنسان المُزيَّنُ بالأدب.

وقال بعض العرب: إنَّ لكلّ شيء ذؤابة، وذُؤابة الشَّرفِ العقلُ والأدب. وإنَّ لكلِّ شيءٍ عروةً، وعروة العزِّ الأدب.

قال شهاب الدين القَرافي: ومن نفاسة الأدب وكثرة جدواه، أنَّ قليله خير من كثير العمل. ولذلك هلك إبليس لعنه الله، وضاع أكثر عمله بقلّة أدبه.

وقالوا: حَسَبُ الرّجل مروءته وحين فعله، فإذا كان الرَّجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، صلح بصلاحه، وتأدب بأدبه جميع أهله.

قال الشّاعر:

رأيتُ صلاحَ المرء يُصلح أهلَهُ

ويعديهم داء الفَساد إذا فَسَدْ

يُعظَّم في الدُّنيا لِفَضل صَلاحه

ويُحفَظُ بعد الموت في الأهل والولَدْ

دخل أعرابيٌّ على أبي جعفر المنصور، فتكلَّم فأحسنَ، فأعجبه كلامه، فقال له المنصور: سَلْ حاجتَكَ، فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين، ويزيد في سلطانك، قال المنصور: ليس في كُلِّ وقت يمكنني أن آمر لكَ بما تُحبّ. فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أستقصرُ عُمركَ، ولا أخافُ بُخلَكَ، ولا أغتنم مالَكَ، وإنَّ سؤالكَ لزين، وإنَّ عطاءك لَشَرف، فأطال الله الأمّة بقاءك، وأحسنَ عنها جزاءكَ، فأمر المنصور بحشو فمه جوهراً، وكتبه في العطاء.

ودخل رجل يومًا على الاسكندر رثّ الهيئة، فتكلّم فأحسن، وسُئل فأصاب الجواب، . فقال له الإسكندر: لو أعطيتَ جسمكَ حقّه من الزِّينة كما أعطيت نفسك حقّها من العلم والمعرفة، لأشبه بعضك بعضًا. فقال له: أيّها الملك،

أما الكلام فأقدر عليه فإنّي مالكه، وأما الزِّينة فلا أقدر عليها لأنّي لا أملكها. فعلم أنّه محتاج، فخلع عليه، وأحسنَ إليه وقرّبه.

ودخل بعض العلماء على الرَّشيد، وكان دميم الصورة، قصير القامة، فاستحقره الرشيد، فقال: ما أقبحَ هذا الوجهَ! فقال العالم: يا أمير المؤمنين إنَّ حُسنَ الوجه ليسَ ممّا يُتوسَّل به إلى الملوك. هذا يوسف -عليه السلام- أحسن النَّاس وجهًا، قال: ﴿**اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم**﴾ (يوسف: ٥٥) ولم يقل: إنّي حَسَنُ الوجه جميل. قال: صدقتَ، ارتفعْ، فرفع قدره، وقرّب مجلسه.

ومن الواجب على من عَريَ من الأدب، وتخلّى عن المعرفة والفهم، ولم يتحلَّ بالعلم أن يلزم الصّمت، ويأخذ نفسَه به، فإنَّ ذلك حظٌّ كبير من الأدب، ونصيب وافر من التوفيق، لأنّه يأمنُ من الغلط، ويعتصم من دواعي السَّقط، فالأدب رأس كُلِّ حكمة، والصَّمتُ جماع الحكم.

قال الشَّاعر:

وفي الصَّمتِ سترٌ للعَيِّ وإنّما

صحيفة لُبِّ المرءِ أنْ يتكلّما

قال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قطُّ إلاّ هِبْتُهُ حتّى يتكلَّم ، فإن كان فصيحًا عظم شأنُهُ في صدري . وإن كان مُقَصِّرًا سقط عن عيني .

قال الشاعر :

لســـانُ المرءِ يُنبيءُ عن حـــجـــاهُ

وعَيُّ المرءِ يســـتـــرهُ السُّكوتُ

وكان يقول : الجمال في اللّسان، والمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه .

قال ابن مسعود : إنَّ كُلَّ مؤدِّب يجب أن يؤخذَ بأدبهِ ، وإنَّ أدبَ اللّه هو القرُآن . ولولا ما قد جُبلت عليه النُّفوس من ارتياحها إلى أنواع تختلف، وارتياحها، بل واستروا حها إلى فنون تُستطرف لكان كتاب الله كافيًا ، وذكر غيره مستحسنًا .

# الفصل الثاني
# في المروءة

اعلم أنَّ المروءة دالَّةٌ على كرم الأعراق، باعثة على مكارم الأخلاق. وهي مراعاة الأحوال التي يكون الإنسان على أفضلها.

قال رسول الله ﷺ: «من عامل النَّاس فلم يظلمهم، وحدّثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يُخلفهم، فهو ممّن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوّته».

وقال ﷺ: «لا دين إلاّ بمروءة».

وقال ﷺ: «المروءة في الإسلام: استحياء المرء من اللّه أوّلاً، ثمّ من نفسه آخراً»

قال ابن سلاّم: حدُّ المروءة رعي مساعي البرّ، ورفع دواعي الضرّ، والطّهارة من جميع الأدناس، والتخلّص من عوارض الالتباس، حتّى لا يتعلّق بحاملها لوم، ولا يلحق به

ذمّ، وما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ، ويبعث على شرف الممات والمحيا إلاّ وهو داخل تحت المروءة .

قيل لبعض الحكماء : ما المروءة؟ قال : طهارة البدن، والفعل الحَسَن .

وسُئل بعضهم : أيّ الخلال أجمع للخير ، وأبعد من الشَّرِّ، وأحمد للعُقبى؟ فقال : الجنوح إلى التقوى والتحيّز إلى فئة المروءة.

وقال بعض العلماء : اتّقِ مصارع الدُّنيا بالتّمسُّك بحبل المروءة، واتّقِ مصارع الأُخرى بالتَّعلُّقِ بحبل التَّقوى تَفُزَ بخير الدَّارين ، وتَحَلَّ أرفعَ المنزلتين .

وقال بعضهم : إذا طلبَ رجلان أمراً ظفر به أعظمهم مروءة.

قال الشَّاعر :

كـمـالُ المروءة صـدقُ الحـديثِ
وسِترُ القـبـيح عنِ الشَّامـتـينا

قيل للأحنف بن قيس : ما المروءة؟ قال : صِدْق اللسان، ومواساة الإخوان.

قال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن عقوبة ذي المروءة ما لم تبلغ حداً، وإذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه».

وأسباب المروءة إنّما هي مرتبطةٌ بشَرَفِ النَّفسِ، وعلُوٌ الهّمة إذا اجتمعا ولم يتفرّقا.

قال بعض الحكماء: المروءة سجيّةٌ جُبلت عليها النُّفوسُ الزَّكيّة، وشيَمٌ طُبعَتْ عليها الهمم العَليَّة، وضعفت عنها الطِّباع الدَّنيّة، فلم تُطِق حَمْلَ أشراطها السَّنيَّة.

وقال غيره: لا يدرك المروءة إلاّ مَن حَوى خصالَها، وجمع خلالَها. وفي ذلك يقول الشّاعر:

إنَّ المروءةَ ليسَ يُدركُها امرؤٌ
ورثَ المكارم عن أبٍ فأضاعَها

أمَرتْه نفسٌ بالدَّناءةِ والخَنا
ونَهتْهُ عن سُبُلِ العُلا فأطَاعها

فإذا أصابَ من المكارمِ خلَّةً
يبني الكريمُ بها المكارمَ باعَها

وللمروءة وجوهٌ وآدابٌ لا يحصرها عدد ولا حساب، وقلّما اجتمعت شروطها قطٌّ في إنسان، ولا اكتملت وجوهها

في بَشَرَ، فإن كان ففي الأنبياء- صلوات اللّه عليهم- دون سائرهم. وأمّا النّاس فيها فعلى مراتب بقدر ما أحرز كُلٌّ واحد منهم من خصالها، واحتوى عليه من خلالها.

قال بعض الحكماء: لا تفارق الصَّبر فتعظم عليكَ البلوى، ولا المروءة فتشمتَ بكَ الأعداء، قال الشّاعر:

من فارق الصَّبر والمُروَّة

أمكنَ من نفسه عَدُوَّه

قيل لعبد الملك بن مروان: كان مصعبُ بن الزُّبير يشرب الطّلا[1] قال: لو علم مصعب أنّ الماءَ يُفسد مروءته ما شربه.

قال الشّاعر:

أعفو عن الأمر القبيح تكرُّمًا

وإن لم أكُن حبْرًا ولا مُتَخَشِّعا[2]

وأمنعُ نفسي ما تلذُّ وتشتهي

إذا أنا يومًا خِفْتُ عَيْنًا ومَقْرَعا

(١) الطّلا: الخمر.

(٢) الحَبْرُ: العالم الصالح.

ولو خِلْتُ أنَّ الماءَ يومًا يَشينني

لَمِتُّ ولم أجْرَع من الماء مَجْرَعا

قيل لسفيان بن عُيَينة: قد استنبطتَ من القرآن كلَّ شيء، فأينَ المروءةُ فيه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿**خُذ العفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرض عن الجاهلين**﴾(الأعراف: ١٩٩) ففيه المروءة، وحُسن الآداب، ومكارم الأخلاق. فجمع في قوله: ﴿**خذ العفوَ**﴾ صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرِّفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله تعالى: ﴿**وأمر بالعُرف**﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغضّ الأبصار، والاستعداد لدار القرار. ودخل في قوله: ﴿**وأعرض عن الجاهلين**﴾ والحضّ على التَّخلُّق بالحلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتَّنزُّه عن منازعة السُّفهاء، ومساواة الجَهلة والأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.

وقال اللّه عزَّ وجَلّ حكاية عن قوم قارون: ﴿**وابتغِ فيما آتاك اللّهُ الدَّارَ الآخرة ولا تنسَ نَصيبكَ منَ الدُّنيا، وأحسنْ كما أحسَنَ اللّهُ إليكَ، ولا تَبغِ الفسادَ في الأرض**﴾ (القصص: ٧٧) وفيها عين المرُوءة وحقيقتها.

وقال أنو شروان: المروءة ألاَّ تعمل عملاً في السِّرِّ تستحي منه في العلانية.

وقال أبو منصور الثعالبي: لا مروءة لمن لا يجتمع الإخوان على خوانه، ولا تقع الأجفان على جفانه.

وقال بعضهم: المروءة إدامة الإهداء، وترك الاستهداء.

وكان يقال: ما أرضى الغضبانَ، ولا استعطفَ السُّلطانَ، ولا سلَّت السَّخائم، ولا دُفعت المغارم، ولا تُوقّي المحذور، ولا استُعملَ المهجور بمثل الهديّة.

قال الشَّاعر:

هدايا النَّاس بعضهم لبعضٍ
تُولّد في قُلوبهم الوصالا
وتزرع في الضَّمير هوىً وودًّا
وتكسوهم إذا حضروا جَمالا

والطِّيبُ لسان المروءة، قال محمد بن عبد الله العتبيّ: في الطِّيب أربع خصال: سنَّةٌ ومروءةٌ، ولَذَّةٌ، وقُوَّة.

قال المُبَرّد في كتاب «الكامل»: ثلاثة تحكم لهم بالشَّرف والمروءة قبل أن تعرفهم: رجل شممتَ منهُ طيبًا، ورجل

تربيتُهُ في بلاد العجم وهو يُعرب في كلامه، ورجل راكبٌ فرسًا جوادًا.

قال بعض السَّلف: المروءة إصلاح المال، وحُسن التّدبير، وتعاهد الصَّنيعة، والإفضال على الإخوان.

وقال أبو منصور: المروءة أن تكون بمالكَ متبرِّعًا، وعن مال غيرك متُورِّعًا.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أعان على مروءة المرء كالمرأة الصَّالحة.

قال الشَّاعر:

إذا لم يكن في منزل المرء حُرَّةٌ
مُدبِّرَةٌ ضاعت مروءةُ داره

وسُئل مسعر بن كدام عن المروءة، فقال: التَّفَقُّهُ في الدِّين، ، ولزوم المسجد إلى أن تطلع الشَّمس.

وسُئل عبد الله الفارسيّ عنها، فقال: هي التّألُّفُ، والتَّظرُّف، والتَّنظُّفُ، وترك التَّكلُّف.

قال الإمام أبو الحَسن الماورديّ: الفرقُ بين العقل والمروءة أنَّ العقل يأمرُ بالأنفع، والمروءة تأمر بالأجمل،

ولا ينقادُ للمروءة إلاَّ مَن سهلت عليه المَشاقّ رغبة في الحمد، ولذلك سيّد القوم أشقاهم.

قال أبو الطَّيّب:

لولا المشـقّـةُ سـادَ النَّاس كُلُّهمُ

الجـودُ يُفـقِـرُ والإقـدامُ قـتَّـالُ

وقال أيضاً:

وإذا كـانت النُّفـوس كِـبـاراً

تَعِـبت في مُـرادها الأجْـسـامُ

# الفصل الثالث

## في المـال

اعلم أنَّه قـد يحـتـاجُ الزيادة في المال زهلُ التَّكرُّم والإفضـال، فـالمالُ على المروءة من أكـبر العـون، وللحَسَب والمجد من أعظم الصَّون، وهو يستـر العـوار، وعدمـه يُطفئ الأنوار.

قال بعض العرب: المروءة طعام مأكول، ونائل مبذول، وبِشْرٌ مقبول، وكلام معسول.

وقال أُحَيجةُ بن الجلاح:

رُزِقتُ لُبًّا ولم أُرزَقْ مُروءتَهُ
وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ

إذا أرادتَ مُساماةً تَقاعَدَ بي
عمّا ينُوّهُ باسمي رقَّةُ الحالِ

قيل: لا مروءةَ لمُقِلٍّ.

قال بعضهم: المالُ والمروءةُ رَضيعا لَبانٍ، وشريكا عنان، وغزيا حصان، وفَرسَا رهان.

رُفِعَ إلى المنصور كثرة نفقات محمد بن سليمان والي البصرة، فوقّع: أعظم النَّاسِ مروءةً أكثرهم مؤونةً.

قال بعضهم: لا مروءة إلاّ بالمالِ والفِعالِ.

وقال ابن نُباتة:

مــــثل خلَعتْ على الزَّمــــان رداءَهُ

عَونُ الــدَّراهــم آفَةُ الأجــــــــوادِ

فَمــــالُ المرء مؤثَّلُهُ[1]، وعُمــدتُهُ، وعُدّته، وجمــاله، ومروءته.

قال رسول الله ﷺ: «نِعمَ العونُ على تقوى الله - عزّ وجَلّ - هذا المالُ».

وقال - ﷺ: «لا حَسَدَ إلاّ في اثنين: رَجُلٌ أتاهُ اللهُ مالاً فهو ينفقه في الحقّ، ورَجل أتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويُعلّمها».

---

(١) أثَل: أصل، وقَدمُ وشرَف.

وقد قال بعض الحكماء: خير الدَّارين التُّقَى والغِنى، وشرُّ الدَّارين الفقر والعجز، فأَجْمِلْ في الطَّلبِ فلن يعدوكَ ما قُدِّرَ لك.

وكان يُقال: الشكر زينةُ الغِنى، والعَفافُ زينةُ الفقر.

ويُقال في المَثل: رُبَّ شَرَفٍ عالي الذُّرى، ألحقَهُ عَدَمَ الثَّراءِ بالثَّرى.

قال الشَّاعر:

يغدو الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضدَّهُ

والنَّاسُ تُغلقُ دونَهُ أبوابَها

حتَّى الكلابَ إذا رأتْ ذا مَلْبَسٍ

هشَّتْ إليهِ وبَصْبَصَتْ أذنابَها[1]

وإذا رأتْ يومًا فقيرًا خاطرًا

هَرَّتْ عليهِ وكشَّرَتْ أنيابَها

ويُروى أن لُقمان الحكيم قال لابنه: يا بُنَيَّ استعِنْ بالكَسْبِ الحلال على الفقر، فإنَّه ما افتقر أحد إلاَّ أصابته ثلاثُ

---

(١) بصبص الكلب: حرك ذنبه طمعًا أو ملقًا أو خوفًا.

خلال: رقَّةٌ في دينه، وضعف في عقله، وذَهابُ مروءته. وأعظم من هذه الثلاث استخفافُ النَّاس به.

قال قيس بن عاصم لبنيه: يا بَنيَّ عليكم باصطناع المال، فإنَّه مَنْبَهةٌ للكريم، ويُستَغنى به عن اللَّئيم.

قال عمر بن الخَطَّاب -رضي الله عنه-: حَسبُ الرَّجل مالهُ، وكرمه دينه، ومروءته خلقه.

وقال حكيم لابنه: اطلبِ المالَ، فإنَّه عِزٌّ في قلبك، وذُلٌّ في قلب غيرك.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: الدُّنيا العافيةُ، والشَّبابُ الصِّحَّة، والمروءة الصَّبْرُ، والكَرَمَ التَّقوى، والحَسَبُ المالُ.

وقالت الحكماء: يُجمَعُ المال ليُصانَ به العِرْضُ، وتُحيا به المروءة، وتُوصل به الرَّحِمُ.

قال الثَّوريُّ: المال صلاحُ المؤمن في هذا الزَّمان.

وقال عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه-: يا حبّذا المالُ أصونُ به عِرضي، وأتقرَّبُ به إلى ربيّ.

وقال معاوية: إنَّ الشَّرف والسُّؤددَ لينتقلان مع الغِنَى كما ينتقل الظِّلُّ.

قال الشاعر:

يُسَوِّدُ هذا المالُ غيرَ مُسَوَّدٍ
ويُحْرِمُهُ لَيْثٌ فيُصبحُ ثَعْلَبَا

وأوّلُ مَن يَجفو الفَقِيرَ لِفقْرِهِ
بَنُوهُ، ولَن يَرضوه في فقرِهِ أبَا

كأنَّ فَقِيرَ القَومِ في النَّاسِ مُذنِبٌ
وإنْ لم يكُنْ من قَبلِ ذلكَ أَذنَبا

ومن أقوالِ الحكماء: المالُ يَسترُ القَبَائِحَ، والفَقرُ يحجبُ المحاسنَ إلاّ مَن رفض الدُّنيا اختباراً، أو تَركها تَهاونًا لها واستصغاراً.

قال الشَّاعر:

إذا اكتسَبَ المالَ الفتَى من وجوهِهِ
وأحْسَنَ تَدبيراً لهُ حين يَجمَعُ

وميِّزْ في إنفاقه بين مُصْلِحٍ
مَعيشَتَهُ فيما يَضرُّ ويَنْفَعُ

وأرضَى به أهْلَ الحقوقِ ولم يُضِعْ
به الذّخر زادًا للّتي هي أنْفَعُ

فذاكَ الفتَى لا جامعُ المالِ ذاخرًا
لأولاد سوءٍ حيثُ حَلُّوا وأوضعوا[1]

وصاحب الدُّنيا يطلب ثلاثًا لا يدركها إلا بأربعة، فأمّا الثلاثة التي يطلب: فالسَّعة في المعيشة، والمنزلة في النَّاس، والمنزلة في الآخرة.

وأمّا الأربعة التي يدرك بها الثَّلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجوهه، ثمّ حسن القيام عليه، ثمّ التَّثمير له، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة، ويرضي الأهل والإخوان، ويعود في الآخرة نفعه، فإن أضاع شيئًا من هذه الأربعة لم يدرك شيئًا من الثلاثة. وإن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب. ولم يحسن القيام عليه، يوشك أن يفنى ويبقى

---

(١) أوصعوا: تنقلوا، وأسرعوا

بلا مال، وإن هو أنفقه ولم يثمره، لم تنفعه قلّة الإنفاق من سرعة النَّفاذ، كالكحل الّذي إنّما يؤخذ على مثل الغُبار ، ثمّ هو مع ذلك سريعٌ نفادُه، وإن هو أصلح واكتسب وثمر، ثم لم ينفق المال في أبوابه، كان بمنزلة الّذي لا مال له، ثمّ لا يمنع ذلك له من أن يفارقه، ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء الذي تنصبُّ فيه المياه إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه نَصَلَ [1] وسال من نواحيه فيذهب ضَيَاعاً.

قال بعض الحكماء: آفة المال سوء التدبير، وآفة الكامل من النّاس العدم.

وقال أرسطاطاليس: الغِنى في الغربة وطنٌ والفقر في الوطن غربة.

سأل رجل الحكيم اليوناني فقال: علّمني مايقُربّني من اللّه ومن الناس. فقال: أما ما يُقرّبك من اللّه فمسألته، وأمّا ما يُقرّبك من النّاس فتَرْكُ مسألتهم.

وقالوا: أفضل المال ما قُضي به الحقوق.

وكان يُقال: شرُّ مالِكَ ما لزمك إثمُ مكسبهِ، وحُرِمْتَ لذّة إنفاقه.

قال بعضهم: الرِّزق الواسع بمن لا يستمتع به، بمنزلة طعام موضوع على قبر.

وقال عليّ رضي الله عنه: أفضل المال ما أكسبَ حمداً، وأعقب أجراً.

قال الشاعر:

ذهابُ المال في حمدٍ وأجرٍ
ذَهابٌ لا يُقالُ له ذَهابُ

ومن أمثال الحكماء: خير الأموال ما استرقَّ حُرّاً، وخيرُ الأعمال شكرُ ما استحقَّ شكراً.

وفي كتاب الهند: ليُنفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه: في الصَّدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السُّلطان إن أراد الذكر، وفي النِّساء إن أراد نعيم العيش.

وقالت الحكماء: مَن أصلحَ مالَهُ فقد صانَ الأكرمينَ: الدِّين والعِرض.

قال الشّاعر:

ولم أرَ مثلَ الفقرِ أوضعَ للفتى
ولم أرَ مِثلَ المالِ أرفعَ للنَّذلِ

ولم أرَ عِزاً لامرىءٍ كعشيرةٍ

ولم أرَ ذُلاً مثل ناءٍ عن الأَهْلِ

وقال آخر:

ألمْ تعلمي أنَّ الغِنَى يجعلُ الفتى

سَنِيًّا وأنَّ الفَقَر بالمرءِ قد يُزري

فما رفعَ النَّفسَ الوضيعةَ كالغِنَى

ولا وضَعَ النَّفسَ الرَّفيعةَ كالفَقرِ

وقال بزرجمهر: إن كان شيءٌ فوقَ الحياة فالصِّحَّة. وإن كان شيء مثلها فالغِنَى، وإن كانَ شيء فوق الموتِ فالمَرض، وإن كان شيء مثله فالفقر.

وقال بعضهم: الحاجةُ الموتُ الأكبر.

وقال مُجاهد: الخير في القرآن كلّه المال.

وقال السَّريُّ وابن زيد في قوله تعالى: ﴿ **ربَّنا آتنا في الدُّنيا حَسَنَةً، وفي الآخرة حَسَنة**﴾ (البقرة: ٢١): إنَّ الحَسنة في الدُّنيا المال، وفي الآخرة الجنَّة.

قال الشاعر:

وقـائلةٍ مـا العلم والحلم والحـجـا

ومـا الدِّينُ والدُّنيـا فـقلتُ: الدَّراهمُ

تداوي جـراحَ الفـقـر حـتَّى تُزيلَهـا

فـمـا هي في التَّحـقـيق إلاَّ مَراهِمُ

لمَّا نزل قوله تعالى: **﴿ولا تمدّنّ عينيكَ إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم﴾** الآية (الحجر: ٨٨) أمر النبيُّ ﷺ مناديًا ينادي: مَن لم يتأدَّب بآداب اللّه، تقطّعت نفسه على الدُّنيا حسرات.

# الفصل الرابع

## في التّحبُّب إلى الناس
## ومداراتهم والمسالمة بينهم

أجمعت الحكماء وأهل الفضل على أنَّ السيِّادة والمروءة، وأجمع خلال العشرة في المسارعة إلى المعونة، وفي العفو مع القدرة، وفي التَّوَدُّد إلى النَّاس، والتَّحبُّب لهم.

قال رسول الله- ﷺ: «لن تَسعوا الناسَ بأموالكم، فسعوهم ببَسطِ الوجه وحُسن البِشر».

وقال -عليه الصَّلاة والسلام- : «أحَبُّ النَّاسِ إلى اللّه - عزَّ وجَلَّ- أكثرهم تَحبّبًا إلى النَّاس».

وقال - عليه الصلاة والسَّلام-: «إذا أحبَّ اللّهُ عبدًا حبَّبَهُ إلى النّاس».

قال الشَّاعر:

وجهٌ عليهِ من الحياءِ سَكينَةٌ
ومَحبَّةٌ تجري مع الأنفاسِ
وإذا أحبّ اللّهُ يومًا عَبْدَهُ
ألقى عليه محبَّةً في النَّاسِ

وقال أرسطاطاليس للإسكندر: أعظم ما أوصيك به ألا تتبغَّضَ إلى أحد من خلق اللّه، فرأسُ العقل بعد الإيمان التَّحبُّبُ إلى النَّاس كافة.

قال الشّاعر:

البِشْرُ يُكسِبُ أهْلَهُ
صِدْقَ المودَّةِ والمَحَبَّهْ
والتِّيهُ يستدعي لصا
حبهِ المذَمَّةَ والمَسَبَّهْ

وقال اليزيديُّ النَّحويّ: أتيتُ إلى الخليل بن أحمد، فوجدته جالسًا على طِنْفَسةٍ[1] صغيرة، فرحَّبَ بي، ووسَّع

(١) الطّنفسة: البساط.

لي، فكرهْتُ أن أضَيِّقَ عليه، فانقبضْتُ عنه، فأخذ بعضدي وقرّبني من نفسه. وقال لي: إنّه لا يضيق سمّ الخياط بمتحابّين، ولا تسع الدُّنيا متباغضين.

أخذ هذا المعنى أحمد بن عبد ربّه فقال:

صِلْ مَن هويتَ وإن أبدى مُعاتبةً
فأحْبَبُ العَيْش وَصْلٌ بينَ خلّين
واقطع حبائلَ خِدْنٍ لا تلائمُهُ
فَربَّما ضاقتِ الدُّنيا على اثنين

قال معاذ بن جبل: إذا أحببتَ رجلاً فابذُلْ له مالكَ، وأخلِصْ له وُدَّكَ، ولذوي الفاقة رِفْدك، وللعامّة بِشركَ، ولِعَدوِّكَ عَدْلَكَ، وشُحَّ بدينكَ وعرضِكَ عن كُلِّ أحد.

قال الشَّاعر:

أحْسِنْ إلى النَّاسِ تَستعبدْ قلوبَهُمُ
فطالَما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
وإنْ أساءَ مُسيءٌ فليكُنْ لكَ في
عروضِ زلَّتِهِ عفوٌ وغُفْرانُ

قال أبو جعفر المنصور: إن أحببتَ أن يكثر الثَّناءُ الجَميلُ عليكَ من النَّاس بغير نائل فالقَهُم بِبِشْرٍ حَسَن.

وقالوا: ثلاثة لا يقوم للمرء الرُّشد إلاّ فيهنَّ: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتَّحبُّب إلى النَّاس.

وقالوا: التَّوَدُّد إلى الناس إحدى الحُسنيين.

قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان التَّودُّد إلى النَّاس».

وقالت الحكماء: من لم يُحسن المداراة للنَّاس نادَبه[1] المكروه.

وقال بعضهم: مداراة النَّاس نصف العقل.

وقال العتَّابيّ: المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملك ولا سوقة، يجتلبون بها المنافع، ويدفعون به المضارّ، فمن كثرت مداراته، كان في ذمّة الحمد والسَّلامة.

قال الشّاعر:

فَمَن لم يُدارِ النَّاس قَلَّ صديقه
ومَن ذمَّهم كان الغَنِيَّ المُنَعَّما

---

(١) نادبه: أسرع إليه.

ومَن يُهِنِ الإخـوانَ لا يُكـرمـونَهُ
ومَن يُكرمِ الإخـوانَ كـانَ المُكرَّمـا

وقال بعضهم: ينبغي للعاقل أن يُداري زمانَه مُداراةَ السَّابحِ الماءَ الجاري.

قال الشَّاعر:

إنْ ترَمْكَ الـغُربَةُ فـي مَعْشَرٍ
تَطابَقُوا فـيكَ علـى بُغْضِهِمْ
فَدارِهِمْ مـا دُمْتَ فـي دارِهِمْ
وأرْضِهِمْ مـا دُمْتَ فـي أرْضِهِمْ

وقال آخر:

مـا دُمْتَ حيًّا فَدارِ النَّاس كُلَّهُمُ
فـإنّمـا أنتَ فـي دارِ المُداراةِ
مَن يَدْرِ دارى ومن لـم يَدْرِ سـوف يُرَى
عـمّا قليلٍ نـديمًا للـنَّدامـاتِ

وينبـغي مُداراةُ العَدوِّ، وأن يُتـحَرَّزَ منهُ، ولا يوثَقُ به، وإنّما يُدفَعُ بالمُداراةِ إظهارُ العداوة.

قالت الحكماء: المسَالمة السَّلامة.

وقالوا: سالم تسلم.

قال الشَّاعر:

سـالِمْ جَمـيع النَّاسِ تَسلَمْ مِنْهمُ
إنَّ السَّلامَةَ في مُسـالمةِ الوَرَى

وإذا أتاكَ مِنَ امـرئٍ يومًا أذىً
لا تجـزهِ أبداً بما منه ترى

لمّا قَدم حاتم الأصمُّ إلى أحمد بن حنبل، قال له أحمد بعد بشاشته به: أخبرني كيف التَّخلُّصُ إلى السَّلامةِ من النَّاس؟ فقال له حاتم: بثلاثة أشياء، فقال له أحمد: ما هي؟ قال: تعطيهم مالكَ ولا تأخذ مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تطالبهم بقضاء حقوقك، وتصبر على أذاهم ولاتؤذهم. فقال أحمد: إنها لصعبة! قال له حاتم. وليتكَ تَسلم.

قالت الحكماء: مَنْ غضَّ بصره عن عيوب النَّاس غَضُّوا أبصارهم عنه.

قال الشَّاعر:

لا تلتمس من مَساوي النَّاس ما فيكا

فيكشف اللهُ ستراً مِن مساويكا

واذكُرْ محاسِنَ ما فيهم إذا ذُكِروا

ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فِيكَا

وفي المثل: استر عورة أخيك بما تعلم فيه.

قال الشَّاعر:

أُحبُّ معاليَ الأخلاقِ جهدي

وأكرهُ أن أعيبَ وأنْ أُعابا

فَمن عزَّ الرِّجالَ تَهيَّبوهُ

ومن حقر الرِّجال فَلَنْ يُهَابا

وفي المثل: الأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة، فمن لقي النَّاس بالإحسان، وعاملهم بالأخلاق الحِسان، فهو الذي يخفُّ عليهم جانبه، وتُحمَدُ أنحاؤه ومذاهبه، ولن يعدم منها حُسنَ الثَّناء، ومن الله جزيل الجزاء.

# القسم الثالث

## في طُرَف من الحكايات والآداب، الصّادرة عن أولي الألباب والأسباب

اعلم أن في الحكايات والأخبار سلوة للنُّفوس، وآدابًا نافعة للرئيس والمرؤوس ، والقلوب ترتاح إليها من شجونها، والآذان تصغي لسماع طرفها وفنونها، والوحيد يأنس بمطالعتها، والجليس ينبسط بمذاكرتها ومحاضرتها، والطّباع تجمّ بها من مللها، ويذهب عنها قلّة نشاطها وكثرة كسلها، والملوك يتحفون بها ، وينال الجاه والرفعة منهم بسببها.

وقال عمر بن الخطّاب: عليكم بطرائف الأخبار فإنّها من علم الملوك والسّادة، وبها تُنال المنزلة والحظوة منهم.

وقال علي رضي الله عنه: قيمة كل امرئ ما يُحسن.

وقيل للمأمون: ما ألذُّ الأشياء؟ قال : التَّنَزُّه في عقول النَّاس، يعني قراءة أقوالهم.

ولم تزل الحكايات والأخبار تُذكر في معرض الاعتبار، وتورد موارد االاستبصار. وهذا القسم لا تضبطه الفصول والأبواب، ولا يستوفيه مصنّف في كتاب، غير أنّه يأتي بما يناسب تبويبه، ويشاكل تفصيله وترتيبه.

# الفصل الأوّل

## في الأخبار التي تتعلّق بذوي الإمرة والسِّياسة

قال المسعودي في كتابه «عيون المعارف» : ممّا حفظ من كلام أزدشير عندما وضع التَّاج على رأسه أن قال : الحمد لله الَّذي خصَّنا بنعَمه، وشملنا بفوائده وقسمه، ومهَّد لنا البلاد، وقاد إلى طاعتنا العباد، نحمده حمد من عرف فضل ما أتاه، ونشكر شكر الدَّاري بما منحه وأعطاه، ألا وإنّا ساعون في إقامة منار العدل، وإدرار الفضل، وتشييد المآثر، وعمارة البلاد، والرَّأفة بالعباد، وزمّ أقطار المملكة، وردّ ما تخرّم في سائر الأيّام منها، فليسكن طائركم أيّها النّاس، فإنّي أعمّ بالعدل سنة محمودة، وشريعة موروودة، وسترون في سيرتنا ما تحمدوننا عليه، وتصدق أقوالنا أفعالنا إن شاء الله تعالى.

وحدّث الفضل بن سهل قال : كانت رُسُل الملوك إذا جاءت بالهدايا تجعل اختلافها إليَّ، فكنت أسأل الرَّجل منهم

عن سيرة ملوكهم، وأخبار عظمائهم، فسألتُ رسول الملك الرُّوم عن سيرة ملكهم، فقال: ملك بذل عُرْفَه، وجَرَّد سيفه، فاجتمعت عليه القلوب رغبةً مرهبةً، لا يبطر جنده، ولا يحرج رعيّته، سهل النَّوال، جريء النَّكال[1]، الرَّجاء والخوف معقودان في يديه. قلت: فكيف حكمه؟ قال: يردّ الظُّلم، ويردع الظَّالم، ويعطي كلَّ ذي حقّ حقّه. فالرَّعيّة اثنان: راضٍ ومغتبط، قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: يتصوّر في القلوب فتغضّ له العُيون. قال: فنظر إلى رسول الحبشة -وأنا أصغي إليه- وأقبل عليه فسأل ترجمانه: ما الذي يقول الرُّومي؟ فقال: يذكر ملكهم ويصف سيرته، فتكلّم مع الترجمان بشيء، فقال لي الترجمان: إنَّه يقول: إنَّ مَلِكَهم ذو أناة عند القدرة، وذو حلِ عند الغضب، وذو سطوة عند المغالبة، وذو عقوبة عند الإجرام، قد كسا رعيّتَهُ جميل نعمته، وخَوَّفهم خَسف[2] عقوبته، فهم يتراءونه ترائي الهلال خيالاً، ويخافونه مخافة الموت نِكالاً، وسعهم عَدْلُهُ، وردعتهم سَطْوتُه، إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع، فالنَّاس اثنان: راجٍ وخائف، فلا الرَّاجي خائب الأمل، ولا الخائف بعيد

(١) النَّكال: العقاب

(٢) الخَسفُ: الظلم والإذلال.

الأجَل. قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: لا ترفعُ إليه العُيونُ أجفانَها، ولا تُتبعهُ الأبصار إنسانَها، كأنَّ رعيَّته قَطًا رفرفت عليهم صقورٌ صوائد.

فحدثّت المأمون بهذين الحديثين فقال: كم قيمتها عندك؟ قلت: ألفا درهم. قال: يا فَضْلُ! إنَّ قيمتها عندي أكثر من الخلافة، أما عرفت قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «قيمة كل امرئ ما يُحسن»؟ أتعرف أحداً من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين بمثل هذه الصِّفة؟ قلت: لا. قال: فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار. واجعل العذر مادّة بيني وبينهما في الجائزة عن العود. فلولا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في الخاصّة والعامة دون ما يستحقّانه.

سُئِل رجل من بني أميّة عاقل، فقيل له: أخبرنا من أيّ شيء كان بدء زوال مُلككم؟ فقال: سألتَ فاسمع، وإذا سمعتَ فافهم: إنَّا تشاغَلنا بلَذَّتنا عن تَفقُّد ما كان تَفقُّدُه يلزمنا، ووَثِقْنا بوزراء آثروا مرافقهم، وأبرموا أموراً أسرُّوها عنَّا، وظُلمَتْ رعيَّتُنا فَفسدت نيّاتهم لنا، وجدبَ معاشنا فخلت بيوتُ أموالنا، وقلَّ جُندنا فزالت هيبتُهم لنا،

واستدعاهم أعداؤنا فظافروهم علينا، وكان أكبر الأسباب في ذلك استتارُ الأخبار عنّا.

كتب أبرويز لابنه: يا بنيَّ! إنَّ كلمة منك تسفك دمًا، وكلمة تحقن دمًا، وأمرك نافذ، وكلامُك ظاهر، فاحترس في غضبكَ من قولك أن يُخطئ، ومن لونك أن يتغيّر، ومن جَسدك أن يخفّ، فإنَّ الملوك تعاقب قُدرةً، وتعفو حلمًا.

قال الشّاعر:

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن شَرفوا

حتّى يذلُّوا وإن عزُّوا لأقوامِ

ويَصفحوا عن كثيرٍ من إساءتهمْ

لا صَفْحَ ذُلٍّ ولكن صفْحَ أَحْلامِ

رُوِي عن الرّشيد أنّه أحضرَ رَجُلاً يولّيه القضاء، فقال: يا أمير المؤمنين! إنّي لا أُحْسِنُ القضاءَ، ولا أنا فقيه. فقال الرّشيد: فيكَ ثلاثُ خلال: فيك شرَفٌ، والشّرَفُ يمنعُ أهلَهُ من الدّناءات. ولك حلْمٌ، والحلْمُ يمنعك من العَجلة، ومن لم يُعجّل قَلَّ خطَؤهُ. وأنتَ رجل تُشاورُ في أمرك، ومن شاور

كثر صوابه، وأمّا الفقه فسيَنضمُّ إليك مَن تَتفقَّه به، فَولِّي فما وُجِدَ فيه طَعْنٌ.

قالت الحكماء: السياسة أن يُخلَطَ الوَعْدُ بالوعيد، والعطاء بالمنع، والحِلْمُ بالإيقاع، فإنَّ النَّاس لا يصلحون إلاّ على الثَّواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومَن أخاف ولم يوقع وعُرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز، فحيز الخير ما كان ممزوجًا، وشرُّ الشَّرِّ ما كان صرفًا، وإذا كان النَّاس إنَّما يصلحون على الشِّدَّة واللِّين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشَّرِّ، عاد ذلك الشَّرُّ خيراً، وذلك المنعُ عطاء، وذلك المكروه نفعًا، قال اللّه عزَّ وجلّ. **﴿ولكم في القَصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكّم تتّقون﴾** (البقرة: ١٧٩) فأسْوَسُ النَّاس لرعيّته من قاد أبدانها بقلوبها، وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرَّغبة والرَّهبة.

وقال بعضهم: الرَّغبةُ والرَّهبة أصلان لكلِّ تدبير، وعليهما مدار كُلّ سياسة عظمت أو صغرت، بذلك بعث اللّه الرُّسل، وأنزلَ الكُتُب، وأقام الوعد مع الوعيد، والثَّواب مع العقاب، والرَّجاء مع المخافة، والعفو مع السَّطوة. قال عزّ وجَلّ: **﴿فمن يعمل مثقالَ ذرَّة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال**

**ذرَّة شـرًّا يره** ﴾ (الزلـزلة : ٧-٨) . فكُلّ عـامل على ثقــة ممّا وعده، فتعلّقت قلوب العباد بالرَّغبة والرَّهبة فاطَّرَد والتَّدبير، واستقامت السِّياسة لموافقتها ما في الفطرة، ومن ظنَّ أحدًا من الخلق فوقه، أو دونه يصلح بخلاف ما دَبَّرهم اللّه عليه، خالف الرَّبَّ في تدبيره، وظنَّ أنَّ رحمته فوقَ رحمـة ربّه، ولو كان النّاس يصلحون على الخير وحده، لكان اللّه عزَّ وجَلَّ أولى بذلك الحكم، قال اللّه تعالى في محكم كتابه : ﴿**إنّي لا يَخافُ لديّ المرسلون . إلاّ من ظَلَم ثمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بعد سوء فإنّي غفورٌ رحيم** ﴾ (النمل: ١٠-١١).

وكان أنو شروان إذا ولّى رجلاً أمر الكاتب أن يضَعَ في كتاب العهد موضع ثلاثة أسطر، فيوقّع فيها بخطّه : سُسْ خيار النَّاس بالمحبّة، وامزج للعامّة الرَّغبة بالرَّهبة، وسُسْ سفِلَةَ النَّاس بالمخافة.

قال الشَّاعر:

إذا كنتمُ للنَّاس أهل سـيـاسـةٍ
فَسُوسُوا كرامَ النَّاس باللِّينِ والبَذْلِ
وسُوسوا لئامَ النَّاسِ بالذُّلِّ يَصلحوا
على الذُّلِّ، إنَّ الذُّلَّ يَصلحُ للنَّذْلِ

لمّا أراد عمرو بن العاص المسير إلى مصر قال لمعاوية: يا أمير المؤمنين! إنّي موصيك، قال: أجَل فأوصني، قال: انظر فاقة الأحرار فاعمل في سدِّها، وطغيان السِّفلة فاعمل في قمعها، واستوحشْ مِن الكريم الجائع، ومن اللئيم الشّبعان، فإنّما يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

وقال بعض الحكماء: أحسن جِبِلَّة [1] الولاة إصابة السِّياسة، ورأس إصابة السِّياسة العمل بطاعة الله، وفتح بابين للرَّعيَّة: أحدهما: رأفة، ورحمة، وبذل، وتحَنُّن. والآخر: غُلْظَةٌ، ومباعدة، وإمساك، ومنع.

وخطب سعيد بن شريك بحمص، فحمِدَ اللّه وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها النَّاسُ! إنَّ الإسلام حائط منيع، وبابٌ وثيق، فحائط الإسلام الحقّ، وبابُهُ العَدل، ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتدَّ السُّلطان، وليس شدّة قتلاً بالسَّيف، ولا ضربًا بالسَّوط، ولكنْ قَضاءٌ بالحقِّ، وأخذٌ بالعَدْل.

قال أبو وائل الثَّقفي: دعاني سليمان بن وهب، وقال لي: إنّي قَدَّمتُ حُسْنَ الظَّنِّ بك، والثِّقَة بأمانتك، ووليتكَ

---

(١) الجِبِلّة: الخلقةُ.

قلادة في عنقي، فَصَدِّقْ ظنّي فيك، وحقّق ثقتي بك، ولا تفارق العدلَ في المخلوقين ظاهراً، والعدل بينك وبين الخالق باطناً، والله تعالى المستعان، ثمّ دفع إليَّ رقعة فيها توليتي على بعض الأمور.

وروي أنَّ المهدي ولّى الرَّبيع بن أبي الجهم فارسَ، وقال له: يا ربيع: انشر الحقّ، والزم القصدَ، وارفق بالرَّعيّة، واعلم أنّ أعدلَ النَّاس مَن أنصفَ من نفسه، وأنَّ أجْوَرَهم مَن ظلم النّاس لغيره.

وفي كتاب الهند: إنّما يسْلَم العاقل بالأخذ بالأناة، ولا يزال صاحب العَجَلَة يجتني منها ثمرة النَّدامة، وضعف الرأي، وليس أحدٌ أحْوَجَ إلى التؤدة، والتَّثبُّت من الملوك، فإنَّ المرأة إنّما هي بزوجها، والمولود بأبويه، والمتعلّم بمؤدّبه، والجند بالقائد، والنَّاسك بالدِّين، والعامّة بالملوك، والملوك بالتّقوى، والتّقوى بالتَّثبُّت، فالحزمُ للملك معرفةُ أصحابه، وإنزالهم منزلتهم، واتّهام بعضهم على بعض، فإنَّهم يلتمسون هلاك بعضهم بعضاً، وإظهار مساءة المسيئين، وإخفاء إحسان المحسنين.

قال الحجّاج لعبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين! إنّك أعزُّ ما تكون أحوج ما تكون إلى اللّه، فإذا عززتَ باللّه فاعفُ له، فإنّك به تقدر، وإليه ترجع.

وقال بعض الحكماء: وجدتُ المسيءَ إليَّ عبدَ اللّه، ولو أساءَ إليَّ عبدٌ لأخي لصفحت عنه إكراماً له، فكيف لا أصفح عن مسيء هو عبد الله.

قال الشّاعر:

ارحم أخي عـبـادَ اللّه كُلَّهم

وانظر إليهم بِعَيْنِ اللُّطف والشَّفَقه

وَقِّرْ كبيرَهُم، وارحم صَغيرَهُمُ

وراعِ في كُلِّ خَلْقٍ وَجْهَ مَن خَلَقَهْ

قال الشَّعبيّ: دخلتُ على ابن هُبيرة، وقد أُتي بقوم فأمر بضرب أعناقهم، فقال له رجل منهم: أيّها الأمير! إنّ الّذي جعل السِّجنَ كان حكيماً، جعله قيداً للعَجلة، وباباً إلى التَّثبُّت، وسبباً إلى الأناة، فعليكَ بالتُّؤدة، وإيّاك والعَجَلةَ، فأنتَ على عقوبتنا أقدرُ منكَ على ردِّها، فأمر بِحَبْسِهم، ثمَّ عفا عنهم، وأحْسَنَ إليهم.

قال محمد بن نصر الكاتب:

إذا ما اللّهُ شاءَ صلاحَ قومٍ

أتاحَ لهم أكابرَ مُصْلحينا

ذوي رأيٍ ومعرفةٍ وفَهْمٍ

وإعدادٍ لما قد يَحْذَرُونا

ذكروا أنّ عبد الملك بن مروان لمّا ولّى ابنَه الوليد دمشق عهد إليه بما أحبَّ، ثم قال له: يا بُنيَّ: لأبيكَ صنائع قد رسخت في المجد أصولُها، وأورقت في العُلا فروعها، وأنشر[1] عند النَّاس ذكرها، فلا تهدمنَّ ما قد شرف لك بناؤه، وأضاءَ لكَ ضياؤه، فكفى من سوء رأي المرء، وقبيح أثره، وَضعة نفسه، أن يهدم ما قد شيّد له من فضيلة البناء، ورفيع الثَّناء. إيّاك وأعراض الأحرار، فإنَّ الحُرَّ لا يرضيه من عِرضه عوض، واجتنب العقوبة في الأبشار، فإنّه وِتْرٌ مطلوب، وعارٌ باقٍ، ولا يمنعك من ذي فضل سبقت إليه صنيعة غيرك أن تصطنعه، . فإنَّ صنيعة ذي الفضل شكر تستوجبه، وكنز

---

(١) أنشر: انتشر.

تَدَّخره، واستعمل أهل الفضل دون أهل الهُون [1]، ولا تعزل إلاّ عن عجز أو خيانة، وليكن جُلساؤك غير أسنانك. فإنَّ الشَّباب شعبة من جنون، وإن نازعتك نفسك على أخذ شيء من المال، فلا يكن خصمك إلاّ بيت المال، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفهم عنّي وعنك، وإذا كتبت كتابًا فأكثر النَّظر فيه، فإنّ الكتاب موضع عقل الرَّجل، ورسوله موضع عقله، وأستودعك الله العظيم.

ورُوي أنّه لمّا ولّي الحسن بن عمارة مظالم الكوفة، أصبح الأعمش يقول: ظالمٌ ولي المظالمَ، فبلغ الحَسَنَ بن عمارة قوله، فوجَّه إليه بنفقة وثياب، فلمّا أصبحَ الأعمش قال: مثل هذا يولّى علينا؛ يوقّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعود على فقيرنا، فقال له رجل من جلسائه: يا أبا محمّد! ما هذا قولك بالأمس، قال: حدّثني خيثمة عن عبد اللّه بن مسعود، قال: «جُبِلَت النُّفوس على حُبِّ مَن أحسنَ إليها، وبُغض من أساء إليها».

وفي «كتاب العجم»: إن بعض الملوك استشار وزراءه، فقال أحدهم: لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحدًا إلاّ خاليًا

(١) الهُون: الخزي والهوان والذلّة.

به، فإنَّه أَمْوَتُ للسِّرِّ، وأحزم للرَّأي، وأجدر بالسَّلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض، فإنَّ إفشاء السِّرِّ إلى واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى العامة، لأنَّ الواحد رهنٌ بما أُفشي إليه، والثّاني يعلق عنده ذلك الرَّهن، والثَّالث علاوة. فإذا كان سرُّ الرَّجل إلى واحد كان أحرى ألاّ يظهره رغبة منه ورهبة، وإذا كان عند اثنين دخلت إلى الملك شبُهة، واتَّسعت على الرَّجلين المعارض، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد، وإن اتّهمهما اتّهم بريئًا بجناية مجرم، وإن عفَا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له.

قال الشَّاعر:

شاورْ سواكَ إذا نابَتْكَ نائبةٌ
يومًا وإنْ كنتَ من أهلِ المَشُوراتِ
فالعَينُ تنظرُ منها ما دَنا ونَأى
ولا ترى نَفْسَها إلاّ بمِرآةِ

قال الوليد بن عتبة: أسَرَّ إليَّ معاوية حديثًا، فأتيتُ أبي، فقلتُ له: إنَّ أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثًا، ولا أظنُّهُ كان يطوي عنك ما بَسَطَهُ إليَّ، أفأخبركَ به قال: لا يا بُنَيّ، إنَّ من

كتم سراً كان الخيارُ إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه، فلا تكن مملوكًا بعد أن كنت مالكًا. قال: فقلت: يا أبَت، إنَّ هذا لا يدخل بين الرَّجل وابنه. قال: لا يا بُنَيّ، ولكن أكرهُ أن يتذلَّل لسانُكَ بأحاديث السرِّ. فدخلتُ على معاوية فحدَّثته بما جرى بيني وبين أبي، فقال: وَيْحَكَ يا وليد، أعتقك أخي من الخطأ.

قال الشَّاعر:

تَحَفَّظْ مِن لسانكَ فهو عُضوٌ
أشدُّ عليكَ من وَقْعِ اليماني

فلا واللّه ما في الأرضِ شيءٌ
أحَقُّ بطولِ سجنٍ من لِسانِ

قال بعض الحكماء: يجب للوالي أن يعلم أنَّ رأيه لا يتّسع للأمور كلِّها، فيتفرَّغ للمُهمِّ منها، وليعلمْ أنَّه متى شَغَل نفسه بغير المهمّ أزرى بالمُهمّ.

وقالوا: يُستَدَلُّ على إدبار المُلْك بخمسة أمور: أحدها: أن يستكفي الملك بالأحداث، ومن لا خبرةَ له بالعواقب. الثّاني: أن يقصدَ أهلَ مودّته بالأذى. الثّالث: أن ينقصَ

ينقص خَراجهُ عن قَدْر مؤونة ملْكه. الرَّابع: أن يكون تَقريبهُ وتبعيدهُ للهوى لا للرأي. الخامسُ: استهانته بنصائح العقُلاء، وآراء ذوي الحنكة.

وقالوا: رأس أعمال الملك أربعة أشياء: حفظ المملكة، وتحصين الديانة، وإثابة المحسن، وإنصاف المظلوم.

قال بعض الحكماء: الدُّول تشبُّ، وتكهل، وتخرف، فإذا كان عائدها أكثر ممّا يستحقُّه الملك، فهي شابَّةٌ تنذر بطول البقاء، وإن كان عائدها بمقدار ما يحتاج إليه فهي مكتهلة، وإن كان عائدها أقلَّ ممّا يحتاج إليه فهي خرفة متوليّة.

# الفصل الثاني
# في الأخبار التي تتعلّق بذوي الهمم والرّياسة

حدَّث محمّد بن عبد الأعلى بن هاشم القاضي، قال: كان الوزير سليمان بن وانسوس رجلاً جليلاً أديبًا من رؤساء البربر، وكان أثيراً عند الأمير عبد اللّه بن محمّد صاحب الأندلس من بني أميّة، فدخل عليه يومًا، وكان عظيم اللّحية، فلمّا رآه مقبلاً جعل الأمير ينشد:

مَعلوفَةٌ كأنَّها جوالقُ[1]

نَكْداءُ لا باركَ فيها الخالقُ

للقَمْلِ في حافاتها تَعانقُ

فيها لباغِي المتّكا مرافقُ

(١) الجُوالق: العدل من صوف أو شعر.

وفي احــتـــرامِ الضَّيفِ ظلٌّ رائقُ
إنَّ الذي يحـــــملُهـــــا لمائقُ[1]

ثمّ قال له : اجلس يا بُرَيريّ، فجلس وقد غضب، فقال له : أيُّها الأمير! إنَّ النَّاسَ يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضَّيم، وأما إذا صارت جالبةً للذُلّ، فلنا دورٌ تَسعنُا وتُغنينا عنكم، فإن حلتم بيننا وبينها، فلنا قبورٌ تَسَعُنا لا تقدرون على أن تحولوا بيننا وبينها، ثمَّ وضع يديه في الأرض وقام من غير أن يُسلّم ونهض إلى منزله. قال: فغضب الأمير، وأمر بعزله عن الوزارة، ورفع دَسْتَهُ[2] الذي كان يجلس عليه، وبقي كذلك مُدّة، ثمّ إنَّ الأمير عبد الله وجد[3] على فقده لعفافه، وأمانته، ونصيحته، وفضل رأيه، فقال للوزراء: لقد وجدتُ لفقد سليمان تأثيراً، وإن أردتُ استرجاعه وتبرآ منّا، كان ذلك غضاضة علينا. ولَوَددتُ أن يبدأنا بالرَّغبة. فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد بن غانم: إن أذنتَ لي في المسير إليه استنهضتُه إلى هذا، فأذن له ، فنهض

(١) المائق: الأحمق في غباوة.
(٢) دَسْتُ الوزارة: منصبها.
(٣) وجد: حزن.

ابن غانم إلى دار بن وانسوس، وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أيّام بني أميّة ألاّ يقومَ الوزير إلاّ لوزير مثله، فإنّه كان يتلقّاه وينزله معه على مرتبته، ولا يحجبه ولا لحظة، فأبطأ الإذن على ابن غانم حينًا، ثم أذن له فدخل عليه، فوجده قاعداً، فلم يتزحزح له ولا قام إليه، فقال له ابن غانم: ما هذا الكبْر؟ عهدي بك وأنتَ وزير السُّلطان، وفي أبّهة رضاه تتلقّاني على قدم، وتتزحزح لي عن صدر مجلسك، وأنت الآن في موجدته بضدّ ذلك. فقال له: نعم، لأنّي كنت حينئذٍ عبداً مثلك، وأنا اليومَ حُرٌّ، قال: فيئس ابنَ غانم منه وخرج ولم يُكلِّمْهُ، ورجع إلى الأمير فأخبره. فابتدأ الأمير بالإرسال إليه، وردَّهُ إلى أفضل ممّا كان عليه.

لمّا جاءت الخلافة هشام بن عبد الملك سجد مَن معه غير الأبرش الكلبيّ، فقال له هشام: مالك لم تسجد ياأبرشُ؟ فقال: مالي وللسُّجود يا أمير المؤمنين؟ بينما أنت صاحبي إذْ ذهبتَ في السَّماء وتركتني. قال: فإن ذهبنا بكَ معنا أوَ تفعلُ؟ قال: نعم. قال: فالآنَ طاب السُّجود، فَسجدَ.

ركب جلال الدَّولة يومًا إلى الصَّيد على عادته، فلقيه سواديّ يبكي، فقال له: مالكَ؟ فقال: لقيني ثلاثة غلمان

أخذوا لي حِملَ بطّيخ كان معي، هو بضاعتي، فقال: امضِ إلى العسكر، فهناك قُبَّةٌ حمراء، فاقعد عندها، ولا تبرح إلى آخر النَّهار، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك، فلمّا عاد السّلطان قال لناقبه: إنّي قد اشتهيتُ بطيخًا، ففَتَّشَ العسكرَ، وفَتَّشَ الخيامَ على شيء منه، وأخذ البطّيخ، فقال: عند مَن وجدتموه؟ قيل له: في خيمة فلان الحاجب، فقال: أحضروه، فأُحضر، فقال له: من أين هذا البطّيخ؟ فقال: إنَّ الغلمان جاؤوا به، فقال: أريدهم السَّاعة، فأحسُّوا بالشَّرِّ، فهربوا خوفًا من أن يقتلهم، فقال: أحضروا السَّواديَّ، فَأُحضِرَ، فقال له: هذا هو بطّيخك الذي أُخذ منك؟ قال: نعم، فقال: خذه وهذا الحاجب مملوك لي، وقد سلّمته إليك، ووهبتُهُ لك حين لم يحضر الذين أخذوا البطّيخ منك، والله لئن خلّيته لأضربنَّ عنقك، فأخذ السَّواديُّ بيد الحاجب وخرجا، فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاث مئة دينار، فعاد السَّواديُّ إلى السُّلطان، وقال: يا مولاي قد بعتُ المملوك الّذي وهبت لي بثلاث مئة دينار، قال: ورضيتَ بذلك؟ قال: نعم، قال: اقبضها وامضِ بالسَّلامة.

لمّا ولّى معاوية عَمْرًا مصر، احتبس في بعض الأعوام خَراجَها عن معاوية، فعزم على عزله عنها، وأراد استعمال أبي الأعور السُّلمي عليها، وكتب إلى عمرو بالتّسليم. ، فلمّا بلغ عمراً الخبر أحضر وردان غُلامَه فقال له: إنَّ أمير المؤمنين قد عَزَلنا واستعمل أبا الأعور، فهل عندك من حيلة؟ قال: نعم! إذا قَدِمَ عليكَ فاصنع له طعامًا، ولا تنظر له في كتاب حتّى يأكل، ودعنا نستعمل عليه الحيلة. فلمّا قدم أبو الأعور على عمرو قال له: هذا كتاب أمير المؤمنين. قال عمرو: لو جئتنا بغير كتاب لَصَدَّقنا مقالَتَكَ. قال: انظر في الكتاب. قال: ما أنا ناظرٌ لكَ فيه حتّى تأكل. قال: فدعا عمرو بالطّعام، ووضع أبو الأعور كتابَهُ وعَهْدَهَ إلى ناحية، وأقبل على الطَّعام يأكل، فجاء وردان فَسَرق الكتاب والعهد فلمّا فرغ أبو الأعور من طعامه أقبل يطلبُ الكتابَ والعهد فلم يجدهما، فقال: أين كتابي وعهدي؟ قال له عمرو: مه يا أبا الأعور، إنّما جئتنا زائرًا فنحسن جائزتك، فاضطرب من ذلك أبو الأعور، ثم صار إلى أن قبل الجائزة. وبلغ ذلك معاوية فضحك حتّى استلقى وأقرَّ عَمْرًا على ما كان عليه من ولاية مصر.

قال الأصمعيُّ: تطاول رجل من قُريش على رجل من أخلاط النَّاس عند عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه- فجعل القُرشيُّ يقول: أنا من معتلج البطاح، وأنا، وأنا . . فغاظ ذلك عمر، فقال له: يا هذا! إن كان لك عقل فلك حَسَب، وإن كان لك خلق فلك شرف، وإن كان لك تقوى فلك كلام، وإلاَّ فلَست خيراً من أحد، وذلك الحمار خير منك . ثمّ قال عمر: إنَّ أحَبكم إلينا قبل أن نراكم أحْسنكُم اسمًا، فإذا رأيناكم فأحسنكم صمتًا، فإذا تكلّمتم فأثبتم منطقًا، فإذا اختبرناكم فأحسنكم عملاً أحبُّ إلينا، وشَرُّكم عملاً أبغضُ إلينا، سرائركم بينكم وبين ربكم.

قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعي رجل من الأعراب، فلمّا كان في بعض المناهل لقيه ابنُ عمٍّ له فتعاتبا، وإلى جانبهما شيخٌ من الحيّ، فقال لهما الشَّيخ: أنعما عَيْشًا، إن المعاتبة تبعثُ التَّجنّي، والتَّجنِّي يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ما ثمرته العداوة. فقلت للشَّيخ: من أنت؟ فقال: أنا ابن تجربة الدَّهر، فقلت: ما أفادك الدَّهر؟ قال: العلم به. قلت: فأيّتُهُ أحمد؟ قال: أن يُقي المرءُ أُحدوثتَهُ حَسَنَةً بعده.

حُكي أنّه شكا بعض أهل الأقطار إلى المأمون واليًا كان عليهم ، فقال لهم : كذبتُم فقد صحَّ عندي عَدلُهُ فيكم ، وإحسانه إليكم، فاستحيوا أن يردّوا عليه قوله، فقال له شيخ منهم : يا أمير المؤمنين! قد عدل فينا خمسة أعوام، فاجعله في قُطر غيره حتّى يسعَ عدلُهُ جميع رعيّتك، وتربح الدُّعاء الحَسَن، فضحك المأمون واستحيا منهم ، وصرفه عنهم .

عادَ المُعَلّى بن أيوب صديقًا له، فرأى علّة وخلّة، فأسرَّ إلى وكيله فقال: اذهب وجئني بخمس مئة درهم مختومة في قُرطاس، فذهبَ، وجاءه، ووضعها بين يديه، فدفعها إلى العليل، وقال له: هذا دواؤك فاستعمله، ونهضَ، ففتحها العليل عن مُنية المتمنّي، وغَيَّرَ ما كان من حاله. فلمّا كان الأسبوع عاده ثانيًا، فرآه متماثلاً نشيطًا، فقال: كيف وجدتَ الدَّواء؟ قال: يا سيّدي وجدته نافعًا لعِلَّتي وحالي. قال: أتريد زيادة؟ قال: نعم يا مولاي، فقال للوكيل: اذهب وجئنا بمثل ذلك الدَّواء، فذهب وجاءه بخمس مئة أخرى، فأنشط العليل من عقال العلّة، وقال: هذه إعادة حياة لا عيادة.

وكان لعمرو بن سعيد صديقٌ ينقطع إليه، فرأى يومًا ثوبه الذي يلي بَدَنَه من تحت جبَّتِه فيه أثر بلىً. فلما انصرف من

عنده وجّه إليه بتَخْتٍ من ثياب، وصُرَّة من دنانير، فأخذها الرَّجل وكتب إليه:

سأشكرُ عَمْرًا إن تَراخَتْ مَنِيَّتي
أيادِيَ لم تَمنُنْ، وإن هي جَلَّتِ
فتىً غير مَحجوبِ الغِنى عن صَديقه
ولا مُظْهِرِ الشَّكوى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خلّتي مِن حيثُ يُخفى مكانُها
فكانتْ قَذَى عَينيه حتَّى تَجلَّتِ

حُكِيَ أنَّه لمّا مَرِضَ الشَّافعيُّ - رضي الله عنه - مَرَضَهُ الَّذي ماتَ منه، قال لقومه: إذا أنا متُّ، فقولوا لفلانٍ يغسلُني. فلمّا توفي وبلغه الخبر، قال: ائتوني بتذكرته، فجيء بها إليه، فوجد فيها على الشَّافعيّ سبعونَ ألف درهم دَيْنًا لفلان وفلان، فكتبها الرَّجل على نفسه، وقال: هذا هو الغسْل الذي أراده.

مرّ الشَّافعيُّ بسوق الحدّادين بمصر، فسقط قوسه من يده، فقام رجل من دُكانه فأخذه ومَسحه بكُمِّه، وناوله إيّاه،

فقال الشافعيّ - رضي الله عنه - لغلامه: كم معك؟ قال: سبعة دنانير، فقال له: ادفعها إليه.

مرّ يزيد بن المُهلّب بأعرابيّة عقب خروجه من سجن عمر ابن عبد العزيز، يريد البصرة، فقَرَته عنزاً، فقبلها، وقال لابنه معاوية: ما معك من النَّفقة؟ قال: ثمان مئة دينار، فقال: ادفعها إليها، فقال ابنه: إنّك تريد الرِّجال، ولا يكون الرِّجالُ إلاّ بالمال، وهذه يرضيها اليَسير، وهي بعد لا تعرفك. قال: فإن كانت ترضى باليسير، فإنّا لن نرضى إلاّ بالكثير، وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعْرَفُ بنفسي، ادفعها إليها.

قدم أعرابيّ على عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة يمنعني الحياء أن أذكرها لك! فقال له: يا أعرابيُّ: خُطَّها في الأرض، فخطّ فيها: إنّي فقير، فقال عليّ لغلامه قنبر: اكسهُ حلّتي، فكساه الحلّة، فأنشد الأعرابيّ يقول:

كَسَوتني حلَّةً تَبْلَى مَحاسنُها
فَسوفَ أكسوك في حلل الثَّنا حُلَلا
إن نِلْتَ حُسْنَ ثَناء نِلْتَ مَكْرُمَةً
ولست تبغي بما قد نِلْتَهُ بَدَلا

إنَّ الثَّناءَ لَيُحْيي ذِكْرَ صاحبِهِ
كالغيثِ يُحيي نَداهُ السَّهْلَ والجَبَلا
لا تَزْهدِ الدَّهْرَ في عُرْفٍ بدأتَ بهِ
كُلُّ امرىءٍ سَوفَ يُجزَى بالّذي فَعلا

فقال عليّ لغلامه: أعطه مئة دينار، فأعطاه إيّاها، فلمّا ولّى الأعرابيّ قال له قنبر: يا أمير المؤمنين! لو فرّقتها في المسلمين لأصلحتَ بها من شأنهم، فقال له عليّ: مَه يا قنبر، لا تفعل، أصحابي معي لستُ أنساهم، مع أنّي سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول: «تَشكّروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه».

قال أعرابيّ لداود بن يزيد المهلّبي: إن لم أصُن وجهي عن مسألتك، فَصُن وجهك عن ردّي، وضعني من كرمكَ حيث وضعتُ نفسي من الثقَةِ بك. فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال له: هي أكبر من قدرك. فقال له الأعرابيّ: لئن جاوزت قدري لما بلغت أملي فيك.

سأل رجلٌ أسدَ بن عبد اللّه فاعتلَّ عليه، فقال له: ما سألتُك إلاّ عن غير حاجة. قال: ولِمَ؟ قال: لأنّي رأيتُك

تُحبُّ مَن لك عنده معروف، فأردتُ أن أتعلَّقَ بحبل وُدٍّ منكَ، فأعطاه.

وأتى ابنَ السَّماك رجلٌ، فقال: إنّي قد أتيتُك في حاجة، واعلم أنَّ الطَّالبَ والمطلوبَ إليه عزيزان إن قُضيتْ، وذليلان إن لم تُقضَ، فاختر لنفسك عِزَّ البَذْل على ذلِّ المَنْع، واختر لي عِزَّ النّجح على ذلِّ المنع. فقضى حاجتَه.

وقال محمّد بن واسع لقُتَيبة بن مسلم: إنّي أتيتُك في حاجة رفعتها إلى الله قبلك، فإن يأذنِ اللهُ فيها قضيتَها وحمدناك، وإن لم يأذن الله فيها لم تقضها وعذرناك.

وقال فيض بن إسحاق: كنتُ عند الفُضَيل بن عِياض، إذ دخل رجل فسأله حاجة، وألَحَّ في السُّؤال عليه، فقلت: لا تُؤذِ الشَّيخ، فقال لي الفُضَيل: اسكت يا فيضُ، أما علمتَ أنَّ حوائجَ النَّاس إليكم نعمة من الله عليكم؟ فاحذروا أن تَملُّوا النِّعم فتتحولَ نِقَمًا، ألا تحمد ربَّك أن جعلكَ موضعًا تُسأَل، ولم يجعلك موضعًا تَسألُ.

وفد قومٌ من قُرَيش على معاوية، فقالوا: السَّلام عليك يا معاوية، فبسط لهم وجهه، وألانَ قولَهُ، فطلبوا الموادعةَ. فقال: يا وجوهَ قُرَيش مالكم أتيتُم من مكان بعيد، ثمَّ لم تجعلوا

بين السَّلام والموادعة حاجة تطلبونها؟ فقالوا: والله يا أمير المؤمنين، ما أتيناك إلاَّ مُفَاخرين بأحسابنا، مُباهين لك برجالنا ومتعزِّزين عليك بسيوفنا، طالبين من مالك، غير راضين باليَسير من نوالك. لكنَّك بسطتَ لنا الوجه، وألنْتَ المقال، فاستغنينا بذلك عن طلب المال، فقال: إذن والله لأجمعَنَّ لكم بين الحُسْنَيين، ولأصرفنَّكم بما يُقَدِّمُ مَن تَخلَّف منكم.

قال ابن سعيد: كان أحد المغاربة الأدباء يتردَّد إلى جمال الدِّين بن مطروح بالقاهرة، وله حينئذ صيتٌ، وتَمكَّنَ من الدَّولة الصَّالحيّة، فمدحه بكثير، وكتب له من النَّثر والنَّظم والأمثال كثيراً، فما ظهر له منه قبول على جميع ما كتب به إليه، وشكا إليَّ ذلك، فقلت له: اكتب له بقول ابن اللَّبَّانة:

جَمالُكَ ألبسَ الدُّنيا جَمالا
ومَدَّ على مَناكِبِها ظلالا

أَجِلْ نَظَرَ السيِّادة في حَديثي
فإنَّ الرِّزقَ حيثُ تُمَيلُ مالا

قال: فوالله ما وقف عليهما حتّى بَسط وجهه، ونَظر في قِصتّه، وظهر منه جميع ما فات من القَول والالتفات.

لمّا مات عمرو بن مَسعدة رُفعت إلى المأمون رقعة أنّه خلّف ثمانين ألف ألف درهم، فوقّع في ظهرها: هذا قليل لمن اتّصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك اللّه لولده فيما خلف، وأحسنَ لهم النَّظَرَ فيما ترك.

لمّا استشعر الإسكندر الوفاة كتب إلى أمّه يُقدّم عندها مقدّمات التَّصبُّر عن مُصابه، بمواعظ ذكرها في كتابه، ثمّ قال لها: يا أُمّت إذا أنا متُّ فاصنعي طعامًا حَسنًا كاملاً، وشرابًا لذيذًا حلواً، وأحضري له كافّةَ النَّاس، واعهدي إليهم ألاّ يحضره مَن نابَتْهُ من الدَّهر نائبةٌ، ولا مَن أصابَتْهُ من الزَّمان مُصيبة، ليكون مأتم الإسكندر خلافًا عن مآتم العامّة، ويكون لك في ذلك الذكر والصِّيت، فلمّا مات امتثلت ذلك، واحتفلت في الطَّعام والشَّراب، ودعَت النَّاس إليه، وعهدت إليهم بما أمرها، فلم يأتها أحد، فقالت: ما بالُ النَّاس مع تَقدُّمنا إليهم قد تخلّفوا عنّا؟ فقيل لها: أمرتِ ألاّ يحضره مَن أصابته مُصيبة، وكلُّ النَّاس أصابتهم المصائب، ونابَتْهم النَّوائب. فقالت: يا إسكندر! ما أشبه أواخرك بأوائلك! أردت واللّه أن تُعزّيني عنك التَّعزية الكاملة.

قال شُرَيْح القاضي: إنّي لأُصابُ بالمصيبة فأحْمَد اللّه عليها لأربعة وجوه: أَحْمَدُه إذا لم تكن أعظم ممّا هي، وأحمده إذ رزقني الصَّبرَ عليها، وأحمده إذ وفَّقني لاسترجاعٍ على ما أرجو فيه الثَّواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني.

دخل المهدي الكعبة ومعه منصور الحجبي من حَجبة البيت، فقال: ما حاجتك؟ قال: إنّي أستحي أن أسأل في بيته غيره، فلمّا خرج أمر له بعشرة آلاف دينار.

قال خالد بن صفوان: لا تطلبوا الحوائجَ في غير حينها، ولا تطلبوها إلى غير أهلها، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل، فتكونوا للمنع خُلقاء.

وقال خالد بن صفوان: شهدتُ عمرو بن عبيد، ورجلٌ يشتمه، فما ترك منه شيئًا. فلمّا فرغ قال له عمرو: آجركَ اللّهُ على ما ذكرت من صَواب، وغفر لك ما ذكرتَ من خطأ. فما حسدتُ أحداً حسدي عمراً على هاتين الكلمتين.

وشتم رجل الشَّعبيّ، فقال له: إن كنتَ صادقًا يغفر اللّه لي، وإن كنتَ كاذبًا يغفر اللّه لك.

وشتم رجل أبا ذرّ، فقال له: يا هذا لا تستغرق في شتمنا، ودع للصلُح موضعًا، فإنّا لا نُكافئ من عصى اللّه فينا بأكثر من أن نطيع اللّه فيه.

وروي أن عليّ بن الحُسين - رضي اللّه عنهما- كان يومًا خارجًا من المسجد فلقيه رجلٌ فَسَبَّهُ، فثارت عليه العبيد والموالي، فقال عليّ بن الحسين: مهلاً على الرَّجل، ثمّ أقبل عليه فقال له: ما ستُر عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نُعينك عليها؟ فاستحى الرَّجل ورجع إلى نفسه. قال: فألقى عليه ثوبًا كان عليه، وأمر له بألف درهم. قال: فكان الرَّجل بعد ذلك يقول: أشهد أنَّك من أولاد الرَّسُل.

ومرّ المسيح بن مريم بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، وقال لهم خيراً. فقيل له: إنهَّم يقولون شراً وأنتَ تقول خيراً؟ فقال: كل واحد ينفق ممّا عنده.

وفي سير العجم أنَّ رجلاً وشى برجلٍ إلى الاسكندر، فقال له: أتحبُ أن أقبلَ منك عليه، وتقبل منه عليك؟ قال: لا. قال: فَكُفَّ عن الشَّرِّ يكفّ عنك الشَّرّ.

أكبّ رجل من بني مُرَّة على مالك بن أسماء يحدّثه في يوم صيف، ويغمّه ويثقل عليه، ثمّ قال: أتدري مَن قَتَلْنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكنّي أعرف من قتلتم منّا في الإسلام. قال: ومَن هُم؟ قال: قتلتني اليومَ بطول حديثك، وكثرة فضولك.

ويروى عن الشّافعيّ- رضي اللّه عنه- أنّه وَجّه إليه بعض الخلفاء- أراه أبا جعفر المنصور- في اللّيل ليقتله، وهو قد اشتدّ غضبًا عليه وحنقًا. فلمّا وصل إليه الرّسول، قال: أجب أمير المؤمنين. قال: وما حاجته إليّ في جوف اللّيل؟ فقال: لا أعرف، لكنّي أُمرتُ أن آتي بك، فاستشعر الشّرّ وخرج مع الرّسول. فلمّا انتهى إلى باب القصر، استأذن الرّسول، فأمر أبو جعفر بإدخاله، فتوقّف ساعة وحرّك شفتيه. ثمّ دخل، فقام المنصور إليه وأخذه بيده، وأجلسه، وجعل يعتذر إيه من التّوجيه وراءه في مثل ذلك الوقت، ثمّ عطف على الرّسول، وقال له: لعلّك روّعتَهُ، فقال له: لا، ثمّ أمر الشّافعيّ بالانصراف، وأمر له بمال كثير.

قال الرّسول: فعجبت ممّا رأيت، وعلمت أنّ الذي نجّاه ما حرّك به شفتيه، فتبعه الرّسول، وقال له بالّذي استنقذك

وأجاب دُعاءك ألا ما أعلمتني بالَّذي حرّكت به شفتيك حين أُمرتَ بالدخول حتّى أنزلك على المقام الذي رأيت. قال: نعم، وكرامة. وأنا أهدي ذلك إليك:

«اللَّهمَّ إني أعوذ بنور قدسكَ، وعظمة طهارتك، وبركة جَلالك من كلّ آفة وعاهة، ومن طوارق اللَّيل والنَّهار، ومن طوارق الإنس والجان إلاّ طارقًا يطرق بخير، يا اللّه يا رحمن، اللَّهمَّ أنت عياذي فيك أعوذ، وأنتَ ملاذي فيك ألوذ، يا مَن ذلّت له رقاب الجبابرة، وخضعت له مقاليد الفراعنة، أعوذ بجلال وجهك، وكرم جلالك من خزيك، وكَشْف سترك ونسيان ذكرك، والإضراب عن شكرك، أنا في كنفك في ليلي ونهاري، ونومي وقراري، وظعني وأسفاري، فاجعل ذكرك شعاري، وثناءكَ دِثاري[1]، لا إله إلاّ أنت تنزيهًا لاسمك، وتكريمًا لسبحات وجهك، أجرني من خزيك، ومن شرِّ عبادك، واضرب عليَّ سرادقات حفظك، وقني سيّئات عذابك، وأدخلني في حفظ عنايتك، يا أرحم الراحمين، فإنَّك على كلِّ شيء قدير، وأنت حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) الدثار: الغطاء.

كان لمالك بن أنس - رضي اللّه عنه - بنت تحفظ «الموطأ» فكانت تقف خلف الباب، فإذا قُرئ على مالك وغلط القارئ نقرت الباب فيعلم غلطه، وكان له ابن اسمه محمّد يجيء، وأبوه مالك يُحدِّث، وعلى يده باشق، فيلتفت مالك للحاضرين، فيقول: أما إنّ الأدب أدب اللّه، هذا ابني كما ترون، وهذه بنتي كما ترون.

وقال ابن سعيد في كتاب «الزهرات»: نقلت من كتاب البيهقيّ الموسوم بـ «العمائم بالكمائم»: أولى ما حفظ الرُّؤساء الكرام من الأشعار أشعار أمثالهم، وأولى ما حفظ من ذلك شعر أبي دُلَف العجليّ، لأنَّ أقواله فيها تُطابق أفعاله مع حلاوة منزعه، وعذوبة مشرعه، وأولى ما حفظ من شعره في ذلك قوله:

إذا جادت الدُّنيا عليك فَجُدْ بها
وبادرْ بها من قبل أن تتفلَّتِ

فلا الجُودُ يُفنيها إذا هي أَقْبَلَتْ
ولا البُخْلُ يُبْقيها إذا هي ولَّتِ

قال بعض الشّعراء :

لا تبخلنّ بدُنيا وهي مُقبلَةٌ

فليس يَنْقصهُا التَّبذيرُ والسَّرَفُ

وإن تولَّت فأحْرَى أن تجودَ بها

فالحمدُ منها إذا ما أدْبَرَتْ خلَفُ

وقال آخر :

ثناءُ الفتى يبقى ويفنَى ثَراؤهُ

فلا تكتَسِبْ بالمالِ شيئًا سوى الذكْرِ

فقد أبلَتِ الأيّام كعبًا وحاتمًا

وذكرهما غضٌّ جَديدٌ إلى الحَشْرِ

قال ابن سعيد : حكى لي الصّاحب كمال الدّين بن العديم أنّ القاضي بهاء الدين بن شدّاد قاضي حلب ، الذي بلغ عند صلاح الدّين وابنه الظّاهر ما لم يبلغه أحد من نظرائه ، مرضَ بحلب . قال : فمشيتُ في جماعة من الشُّبّان المبتدئين في القراءة والظُّهور إلى عيادته ، فعندما دخلنا عليه قام لنا ، فجعلنا نحلف ألاّ يفعل . فقال : يا سبحان اللهِ! تتفكّرون في

مرضي، وتتعنَّون من أماكنكم إلى منزلي، ثمّ أبخل عليكم بقومه؟ هذا واللّه غير طريق المروءة. ثم قال: يا أولادي! لقد دخلت على كبير وأنا في سنّكم فلم يحتفل بي، فإلى الآن ما أذكر ذلكم إلاّ أسأتُ ذكرهُ.

قال: وكنتُ أتردَّد إلى مجلس كمال الدِّين بن يغمور وهو نائب السَّلطنة بالشَّام، وكان يقوم لي كلّما دخلت عليه، فدخلتُ يومًا فإذا به مضطجع فلم يقم، وأخذ فيما كان يأخذ فيه، فلمّا دخلتُ عليه في اليوم الثَّاني قام ثمَّ جلس، ثمَّ قام ثمَّ جلس، وقال: هذه الأخيرة قومة أمس كانت عليَّ دَينًا، لعذر تفضَّل بقبوله دون مطالبة بذكره، فتعجّبتُ من فضله، وقلت: ما سار لهذا الرَّجل ما سار في الآفاق من باطل.

حدَّث الأصمعيّ قال: سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده بها، ثمّ إنَّ الحاجة تعذّرت على أبي عمرو، فلقيه الرَّجل بعد ذلك. فقال له: يا أبا عمرو! وعدتني وعدًا فلم تُنجزه. قال له أبو عمرو: فَمَن أَولى بالغَمِّ أنا أوأنت؟ فقال له: أنا. فقال له أبو عمرو: بل أنا! فقال له الرَّجل: وكيف ذلك أصلحك اللّه؟ قال: لأنّي وعدتُك وَعْدًا فَأُبْتَ بفرح الوعد، وأُبْتُ أنا بِهَمِّ الإنجاز، وبِتَّ ليلتَك فَرِحًا، وَبِتُّ مُفَكِّرًا

مغمومًا، ثُمَّ قُمتُ مهمومًا، ثمَّ عاقَ القَدَرُ عن بلوغ الإرادة، فلقيتني مُدلاً[1]، ولقيتكَ مُحتشِمًا، فمن هنا صرتُ أُولى بالغمِّ منك.

اجتمع جماعة من الشُّعراء بباب أبي الغيث فلم يأذن لهم، فكتبوا إليه:

أيُّهـذا العَـزيز قـد مَـسَّنا الضُّـرْ
رُ ودبَّـتْ بـهِ الخُـطوبُ إلـينـا
ولَـدَيْنا بِـضَـاعَـةٌ مُـزْجَـاةٌ
قَلَّ طُلاَّبُـهـا فَـبـارَتْ لَـدَيْنا
فـأزِلْ ضُـرَّنا وأوفِ لنا الكيْـ
ـلَ بما شِـئْتَ أو تَصَـدَّقْ عَلَيْنا

فأحْسَنَ إليهم وانصرفوا.

امتدح نُصَيبُ الشّاعر عبدَ اللّهِ بنَ جعفر، فأمَرَ له بِخَيْل، وإبل وأثاث، ودنانير، ودراهم. فقال له رجلٌ: أمِثْلُ هذا الأسْوَد يُعطى مثل هذا المال؟ فقال عبد الله بن جعفر: إن كان

(١) المُدِلُّ: الواثق من المحبة والإكرام.

أَسْودَ، فإنَّ شعْرَهُ أبيضُ، وإنَّ ثناءَهُ لمرَويّ، وقد استحقَّ بما قال أكثر ممّا نال، وهل أعطيناه إلاَّ ثيابًا تبلى؟ ومالاً يَفنى؟ ومطايا تَضْنَى؟ وأعطانا مَدْحًا يُروى، وثناءً يبقى.

دخل ابن السَّمَّاك على محمد بن سليمان بن عليّ، فرآه مُعرضًا عنه، فقال: مالي أرى الأمير كالعاتب عليَّ؟ قال: ذلك لشيءٍ بلغني عنكَ كرهتُهُ. قال: إذن والله لا أُبالي، قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّه إن كان ذَنْبًا غفَرْتَهُ، وإن كان باطلاً لم تَقْبَلْه.

بعث زياد إلى معاوية برجل مخالف من بني تميم، فلمّا مثل بين يديه قال له: أنت القائم علينا، المكثر لعدوّنا. قال: يا أمير المؤمنين إنّما كانت فتنة عمَّ عَماها، وأظلم دُجاها، نَزا[1] فيها الوضيع، وخَفَّ الحليم والرَّفيع، فاحتدمَت، وأكلَتْ علينا وشَربَتْ، حتّى إذا انحسرت ظلماؤها، وانكشفَ غطاؤها، آلَ الأمرُ إلى مآله. وصرَّح عن مَحْضه، وارتفع العبوسُ، وثابتَ النُّفوس، فتركْنا فتْنَتَنا، ولزمنا عصْمَتَنا، وعرَفنا خليفتنا، ومَن يجد مَتابًا لم يُرد الله به عقابا، ومَن يستغفر الله يجد الله غَفوراً رحيمًا. فعجب مُعاوية من فَصاحته، واستغربَ حُسْنَ اعتذاره، وعفَا عنه، وأحسنَ إليه.

(١) نزا: وثب.

ذُكر أنَّ المتوكّل بن الأفطس فرَّ إليه شخص من بني هود مغاضبًا لابن عمّه ملك سرقسطة، فآواه وأحسن إليه، ثمّ اختبره، فرآه أهلاً للولاية، فولاّه، فقال له أحد وزرائه: كثيرَ هذا في تغيير قلب قريبه يا مولاي، تُسخِطُ قادراً في حقّ عاجز، تُفرِّط فيمن تحتاج إليه كما يحتاج إلينا، وتغتبطُ بمن لا تحتاج إليه، بل هو موكّلٌ علينا، فقال له المتوكّل: الّذي قُلتَ حقّ، ولكن كيف يكون اقتناء المكارم.

رُوي أن أنو شروان غضب على وزيره بزرجمهر، فسجنه في بيت كالقبر، وصفّده بالحديد، وألبسه الخَشِنَ من الصُّوف، وأمرَ ألاّ يُزاد في كُلِّ يومٍ على قُرصَين من الخبز، وكفّ ملح جريش، ودَوْرق ماء، وأن تُنْقَلَ ألفاظُهُ إليه، فأقام شهوراً لا تُسْمَعُ له لفظة، فقال أنو شروان: أدخلوا عليه أصحابه، ومُروهم أن يسألوه، ويفاتحوه في الكلام، وعَرِّفونيه، فدخل إليه جماعة من المختصّين به، فقالوا له: أيُّها الحكيم! نراكَ في هذا الضيق والحديد والشِّدَّة التي دُفعتَ إليها، ومع هذا فإنَّ سُحْنَةَ وجهك، وصحّة جسمك على حالها لم تتغيّر، فما السببُ في ذلك؟ قال: إنّي عملت جوارش من ستّة أخلاط، فآخذ منه كُلَّ يوم شيئًا، فهو الذي

أبقاني على ما ترون. فقالوا له: فَصِفْهُ لنا فعسى أن نبتلي بمثل بلواك، أو أحد إخواننا فنستعمله، أو نَصِفَ له. فقال: الخليط الأول: الثِّقَةُ بالله. والثَّاني: أنَّ كُلَّ مُقَدَّرٍ كـائنٌ. والثَّالث: الصَّبرُ خير ما استعمله المُمْتَحَن. والرَّابع: إن لم أصبر فأي شيء أعمل، ولم أعِن على نفسي بالجَزَع. والخامس: قد يمكن أن أكون في شَرٍّ أصعب ممّا أنا فيه. والسَّادس: من ساعة إلى ساعةٍ فَرَج.

# القسم الرابع

## في جُمَل من الوصايا والمواعظ الحِسان العظيمة الفائدة والمنفعة لكل إنسان

اعلم أنَّ الكلامَ في هذا القسم لا ينحصر لاتّساع القول فيه، غير أنّي آتي هنا بمقصدي منه، وأرجو بعون اللّه أن أُوَفيه، وأنقل من ذلك إن شاء اللّه جُملاً من الوصايا نافعة، وفنونًا من المواعظ كافية، لمن اتَّعظ بها شافية.

قال رسول اللّه ﷺ: «إذا أراد اللّه بعبد خيراً ألهمه رُشده»، فالانقياد إلى الرُّشد والتَّوفيق، والاستقامة على الخير، ونهج سواء الطّريق، والتَّمسُّك بحبل الهدى، يصرف عن المرء الرَّدى، ويكشف عن قلبه الرَّان[1] والصَّدأ، وما أجدر العاقل بذلكَ وأولاه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

---

(١) الرَّان: ما غطّى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب.

قال بعض الحكماء : استصلح نفسَك بعقلكَ، واجعل نَظَرك وتفكُّرك بمنزلة المرآة، فتدركَ بها ما التبَسَ من أمرك، فالعقل أفصح واعظ، وأحرسُ حافظ، وبالعقل أدرك النَّاسُ معرفة اللّه تعالى، قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ولئن سألتَهُم مَن خَلقهم ليقولُنَّ: الله﴾ (الزخرف: ٨٧) فصديق المرء عقله، وعَدوُّهُ جَهلُه، فالعاقل مِن عقله في إرشاد، ومن رأيه في إمداد، والجاهل من جهله في إغواء ، ومن هواه في إغراء.

قال الشّاعر:

مَنْ لم يكُنْ أكْثَرُهُ عَقْلُهُ

أهْلَكَهُ أكْثَرُ ما فيه

قال رسول اللّه ﷺ: «العقل نورٌ في القلب يُفَرَّقُ به بين الحَقِّ والباطِل».

وقال بعض العلماء: ليسَ الحَرج في أن يتصرَّف الإنسانُ في طلب حَظِّه من الدُّنيا فيما لا بُدَّ له منه، ولا غنيً به عنه، لأنَّ أسبابَ الحجة، وحيَلَ العجز إنّما هي في الدُّنياَ التي هي دار تكليف وعمل، لأنَّ الآخرة دارُ قَرار وجزاء، فليصرفِ الإنسانُ إلى دُنياه حَظّاً من عنايته، لأنَّ بها يتزوَّدُ لآخرته.

وقد قال مُجاهد في قول الله عزّ وجلّ لنبيّه ﷺ: ﴿فإذا فَرَغْتَ فانصَبْ وإلى ربِّكَ فارغب﴾ (الشرح: ٨) إي إذا فرغت من مؤونة الدُّنيا، فانصبْ في العِبادة.

وقال لقمان الحكيم: خذ من الدُّنيا بلاغَكَ، أنفقْ فُضُولَ كَسْبِكَ تقدّمه لآخرتك، ولا ترفضها كلَّ الرَّفض فتكون على النَّاس عِيالا، وعلى أعناق الرِّجال كَلالا[1].

ومن كلام عمر رضي الله عنه: ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدُّنيا، أو عمل للدُّنيا وترك الآخرة، ولكنَّ خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. وإنّما الحَرَجُ في الرَّغبة فيما تجاوز قدر الحاجة، وزاد على حدّ الكفاية، فإنّها فُضول لا تُجدي، وزوائد لا تنفع ولا تُغني، تحمل المرءَ في اشتغاله لها، والنَّظَرَ فيها على التَّقصير عمّا فيه الفائدة، والتأخُّر عمّا فيه العائدة، والعقلاء تركوا فُضول الدُّنيا، فكيف الذُّنوب، وترك فضول الدُّنيا من العقل، وترك الذُّنوب من الفرض.

قال بعض الحكماء: المُجَرِّبُ أحكمُ من الطَّبيب، وفي تَصرُّفِ الدُّنيا موعظة لِكُلِّ أريب. فمَن صَحَّ له يَقينُهُ، وسَلِمَ له

(١) الكَلال: التعب والإعياء.

دينُهُ، فلا شيء يَضيرهُ ولا يَشينُهُ، ومن لم يعتبر تصرّف الأيّام، غرق في بحر الآثام، وقد قيل: كفى بالتّجاربِ تأدّبًا، وبتقلُّب الأيام عِظَةً.

ومن كلام بعض الحكماء: مواعظ الأيّام أبلغُ من مواعظِ الأنام، وإن أعربت من غير كلام، وأفصحتْ عن استعجَام، فطوبى لمن جعل له من نفسه واعظًا، ونصّبَ عليه من اللّه حافظًا.

ومن كلام عيسى عليه السَّلام: طوبى للنَّاطق في قوم يسمعون كلامه، إنّه ما تصدّق رجلٌ بصَدقة أعظم عند اللّه من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنّة. وخير ذلك ما كان من قائل مخلصٍ إلى سامع مُنصت.

# فصل

## من مواعظ النبيّ ﷺ ووصاياه، ومواعظ السلف الصالح ووصاياهم وغيرهم من العلماء والحكماء

قال ﷺ: «أقبلوا على ما كُلِّفتموهُ من إصلاح آخرتكم. وأعرضوا عمّا ضَمِنَ لكم من أمر دُنياكم، ولا تستعملوا جوارحَ غذيت بنعمته في التَّعرُّض لِسَخَطه بمعصيته، واجعلوا شغُلكم بالتماس مغفرته، واصرفوا همَمَكَمُ إلى التَّقرُّبِ إليه بطاعته، والجؤوا إلى العمل الصالح، وأكرهوا عليه النُّفوس، واصبروا على الضَّرَّاء تُفْضُوا إلى النَّعيم الدَّائم».

وقال ﷺ: «حلُّوا أنفُسَكم بالطَّاعة، وألْبسوها قناع المخافة، واجعلوا آخرتكم لأنفسكُم، وسَعْيَكُمْ لمستقرّكم، واعلموا أنَّكم عن قليل راحلون، وإلى اللّهِ صائرون، ولا يغني عنكم هنالك إلاّ صالحُ عملٍ قدَّمتموه، أو حُسن ثُوابٍ حُزتموه».

وقـال ﷺ في بعض خُطبـه : « أيّهـا النَّاس ! إنَّ الأيّامَ تُطوى ، والأعمـارَ تفنى ، والأبدانَ في الثَّرى تبلى ، وإنَّ الليل والنَّهار يتراكضان تراكُضَ البريد ، يُقرِّبان كلَّ بعيد ، ويُخلقان كُلَّ جديد ، وفي ذلك عباد اللّه ما ألهى عن الشَّهوات ، ورغَّبَ في الباقيات الصَّالحات » .

وقـال عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه : لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخّر التَّوبة لطول الأمل ، ويقول في الدُّنيا الزَّاهدين ، ويعمل فيها عمل الرَّاغبين ، إن أعطي منها لم يشبع ، وإن مُنع لم يقنع ، ويأمر بما لا يأتي ، يحبُّ الصَّالحين ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض المُسيئين وهو منهم . يكره الموت لكثرة ذنوبه ، ويقيم على ما يكره الموت له . إن سقم ظلَّ نادماً ، وإن صحَّ أمنَ لاهياً ، يعجب من نفسه إذا عوفي ، ويقنط إذا ابتُلي ، تُقلّبهُ نفسه على ما يظنُّ ، ولا يُقلِّبها على ما يستيقن ، ولا يثقُ من الرِّزق بما ضمن له ، ولا يعمل من العمل بما فُرض عليه . إن استغنى بطر ، وإن افتقر قنط وحزن ، فهو من الذَّنب في حالي المحنة والنّعمة موقر ، يبتغي الزِّيادة ولا يشكر ، ويتكلَّف من النَّاس ما لا يؤمر ، ويضيع من نفسه ما هو أكثر ،

ويبالغ إذا سأل، ويُقصر إذا عمل. يخشى الموت، ولا يبادر الفَوت، يستكثر من معصية غيره، ما يسهل أكثره من نفسه. مزاهر اللَّهو مع الأغنياء أحبُّ إليه من الذّكر مع الفقراء، يحكم على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره. وهو يُطاع فيعصي ويستوفي فلا يوفي.

روي أنَّ رجلاً قال لعليّ رضي اللّه عنه: عظْني يا أمير المؤمنين: فقال: لا تكن بما نلتَ من دُنياكَ فرحًا، ولا على ما فاتكَ منها أسفًا، وكُن مسرورًا بما قدّمت، أسفًا على ما أبقيت، فرقًا ممّا بعد الموت.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: أيُّها النَّاس: اتّقوا اللّه، فليس من هالك إلاّ له كَلَفٌ بالتَّقوى، واحذروا الموت فإنَّه أشدُّ ما قبله، وأهْوَنُ ما بعده، ولا تستصغر الذُّنوب، والتَمسوا تمحيصَها بالتَّوبة، فإنَّ الحَسَنات يُذهبنَ السيِّئات، ذلك ذكرى للذَّاكرين.

وكان رضي اللّه عنه يتمثّل بهذه الأبيات:

نَهارُكَ يا مَغرورُ سهوٌ وغَفْلَةٌ

وَليلُكَ نومٌ والأسَى لكَ لازِمُ

تُسَـــرُّ بما يَفْنَى وتَفْـــرَحُ بالمُنى

كـمـا سُـرَّ باللّذَّاتِ في النَّومِ حـالمُ

وسَـعْـيُكَ فـيـمـا يوف تَكْرَهُ غِـبَّـهُ

كـذلك في الدُّنيـا تَعـيشُ البـهـائِمُ

دَخل أبو الدَّرداء الشَّام فقال: يا أهل الشَّام! اسمعوا قولَ أخ ناصح، فاجتمعوا إليه، فقال: مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتؤمّلون ما لا تدركون، إنَّ الذين كانوا قبلكم بَنَوا مشيداً، وأمّلوا بعيداً، وجمعوا عتيداً[1]، فأصبح أملهم غروراً، وجَمْعُهُم ثُبوراً[2]، ومساكنهم قُبوراً.

ونظر الحَسن البَصريّ إلى النَّاس في مُصَلّى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد، فقال: إنَّ اللّه جعلَ الصَّوم مضمار العباد، ليستبِقوا إلى طاعته، فسبق أقوامٌ ففازوا، وتخلَّفَ أقوامٌ فخابوا، فالعَجَبُ مِن الضَّاحك اللّاعب في اليوم الّذي فاز فيه المُحِقُّون، وخَسِر المبطلون، ولعمري لو

---

(١) العتيد: الجسيم

(٢) الثبور: الهلاك، والخسران.

كُشِفَ الغطاء لَشُغِلَ مُحْسِنٌ بإحسانه. ومُسِيءٌ بإساءتهِ عن تجديد ثوبٍ، أو ترجيل شعر.

ونظر وهب بن منبّه إلى قوم يضحكون في يوم عيد، فقال: إنْ كان هؤلاء غُفِر لهم فما هذا فِعْلُ الشّاكرين، وإن كانوا لم يُغفر لهم فما هذا فِعْلُ الخائفين.

روي أنّ الإسكندر مرّ بمدينة قد تملكها سبعة أملاك، وبادَ جميعهم، فقال: هل بقي من نَسلِهم أحد؟ فقالوا: نعم رجل يسكن المقابر، فدعاه، فأتاه، فقال له: ما دعاكَ إلى لزوم المقابر؟ قال: أردتُ أن أميِّزَ عظامَ الملوك من عظام العبيد فوجدتُها سواء، فقال له: هل لكَ أن تتبعني فأُحيي شرفَك، وشرفَ آبائك إن كانت لك همّةٌ؟ قال: همّتي عظيمة. قال: وما هي؟ قال: حياة لا موت معها، وشباب لا هَرَم بعده، وغنىً لا فقر معه، وصحةٌ من غير سقم، وسرور من غير مكروه. قال: هذا ما لا تجده عندي. فقال: فدعني أطلبه ممّن هو عنده. فقال الإسكندر: ما رأيتُ رجلاً أحكم من هذا، وخرج من عنده، فلم يزل في المقابر حتّى لحق بأهله، رحمه الله.

قال بعض السَّلف: عاملوا اللّه بتقواه، واسترضوه بطاعته، ولا تملّوا من ذكره، ففيه النَّجاة من النَّار، ولا تستصغروا الذُّنوب وتستحقروها، فإنّه مَن استصغرَ الذَّنب وقع فيه، ومن ركب المعصية أهلك نفسه، فإنَّ اللّه عزّ وجَلّ لم يترك صغير الذُّنوب للأنبياء، فكيف للأشقياء؟

قال الشَّاعر:

نسير إلى الآجالِ في كلِّ ساعةٍ
وأيّامُنا تُطوَى وهُنَّ مَراحِلُ
ولم نرَ مِثل الموتِ حقًّا كأنَّهُ
إذا ما تَخطَّتْهُ الأمانيُّ باطِلُ
ترحَّلْ منَ الدُّنيا بزادٍ من التُّقَى
فَعُمرُكَ أيّامٌ تُعَدُّ قلائِلُ

وقال الشَّاعر:

تأهَّبْ للحِمامِ فكُلُّ حَيٍّ
قُصاراهُ وإن عاشَ المَماتُ
ودَعْ شُغلاً يَفوتُكَ مُنْتَهاهُ
فإنَّ الشُّغْلَ غايتُهُ الفَواتُ

ولا يَطمعْ ذَهابُك في رُجوعٍ

فإنَّ طلاقَ ذي الدُّنيا بتاتُ

وقال بعضهم: إنَّ كلَّ يوم يمرّ بكم يحمل ما ثبتَ فيه من خير أو شرّ، ثمَّ يمضي فلا يعود أبداً. فإن قدرتم أن تحظوا كُلَّ يوم بمكرمة، وتُثبتوا فيه حَسَنَةً فلا تُؤخّروا، فإنَّ الأيَّام صحائفُ، فَخلّدوا فيها الجميل، فقد رأيتم حفظها لما استُودِعت من المحامد والمكارم في قديم الدَّهر وحديثه.

قال الشَّاعر:

حَتَّى مَتى نَحنُ في الأيّامِ نَحْسِبُها

وإنّما نحنُ فيها بين يومينِ

يومٌ تَولّى ويومٌ نحنُ نأمَلُهُ

لعلَّهُ أقربُ الأيّام للحَيْنِ (١)

رأى إياس بن قتادة شَيبةً في لحْيته، فقال: أرى الموتَ يَطلبني، وأراني لا أفوته، اللهمَّ إنّي أعوّذ بكَ من فجأةِ الأمور، وبغتات الحوادث. يا بني سعد! قد وهبتُ لكم شبابي

(١) الحَيْنُ: الهلاك.

فهبوا لي شَيبتي. ولزم بيته صائمًا قائمًا، فقال له أهله: تموتُ هزالاً؟ فقال: لأنْ أموتَ مؤمنًا مهزولاً أحَبُّ إليَّ من أن أموت منافقًا سمينًا.

قال الشَّاعر محمود الورّاق:

بكـــيتُ لِقُـــــربِ الأجَـــلْ
وبُعـــــدِ فـــــواتِ الأمَـــــلْ
ووافـــــدِ شَـــــيْب طَـــرا
بعـــقبِ شَـــبـــابٍ رَحَـــلْ
شَـــبـــابٌ كـــأن لـــم يكُـــنْ
وشَـــيْبٌ كـــأنْ لـم يَـــزَلْ
طـواكَ بشـــيـــرُ البَـــقـــا
وحَـــلَّ بَشـــيـــرُ الأجَـــلْ[1]

قال بعض العلماء: وُجِدَ مكتوب في حجر: ابن آدم، لو رأيتَ يسير ما بقي من أجَلِكَ، لزهدتَ في طول ما ترجو من أمَلِكَ، ولَرغبْتَ في الزِّيادة من عَمَلك، ولقصَّرت من

(١) أراد ببشير البقاء: سواد الشعر، وببشير الأجل: الشيب.

حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك، إذا زلّ بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد.

قال رجل لرجل من الزُّهّاد: ما رأيت أزهد منك. قال: أنت أزهد منّي. قال: وكيف؟ قال: لأنّك زهدت في الجنّة على بقائها، وزهدت أنا في الدُّنيا على فنائها.

قال الشّاعر:

إنّ لله عبادًا فُطُنا
طَلَّقُوا الدُّنيا وخافوا الفِتَنا
فكّروا فيها فلمّا عَلِموا
أنّها ليست لِحَيٍّ وَطَنا
جَعلوها لُجَّةً واتّخذوا
صالحَ الأعمالِ فيها سُفُنا

حُكي أنّ عبد الله بن عتُبة باع غَلّةً بثمانين ألفًا. فقيل له: لو اتّخذت بهذا المال ذخيرة لولدك لكان حَسَنًا. قال: أجعل هذا المال عند الله ذُخرًا، وأجعل الله ذُخرًا لولدي، ثمّ قسم المال كلّه في أهل الحاجة.

قال عليُّ بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه:

صَبْرٌ جَميلٌ إذا نابَتْكَ نائبةٌ
وإن عتبتَ فلا عُتْبَى على الزَّمنِ

هي المقاديرُ فاحذرْها فكم صَرَعَتْ
من وافرِ العَقْلِ ذِي لُبٍّ وذي فِطَنِ

وارضَ القَناعَةَ لا تبغي بها بَدَلاً
لو لَمْ تُنَوِّلْكَ إلاّ راحَةَ البَدَنِ

وانْظُرْ إلى مَن حَوى الدُّنيا بأجْمَعِها
هَل راحَ منها بغيرِ الزّادِ والكَفَنِ

فإنّما الغُبْنُ في يوم النُّشُورِ إذا
تغابَنَ النّاسُ فيه أيّما غُبُنِ

# فصل

من المنقـول في تأليفنا «تذكرة من اتّقى» : حدّث سويد ابن حـارث الحـارثي قـال : دخلنا على رسـول اللّه ﷺ، وأنا سابعُ سبعة من قومي، فقال : ما أنتم؟ قلنا : مؤمنون يارسول اللّه . قـال : مـا حقيقة إيمانكم؟ قلنـا : خمسَ عشرة خصلة يـا رسـول اللّه ؛ خـمسة أمَرتنا رُسُلك أن نعمل بهـا، وخـمسة أمرتنـا رُسُلك أن نؤمنَ بهـا، وخمسـة كُنَّا عليهـا في الجاهليّة إلاّ أن تكون تكره منها شيئًا يا رسـول اللّه، قـال : مـا الخمسة الّتي أمـرتكم رُسُـلي أن تَعـملـوا بهـا؟ قـلنـا : شـهـادة أن لا إلـه إلا اللّه، وأنّك مـحـمـدٌ رسـول الله، ونقـيم الصَّـلاة، ونؤتي الزكـاة، ونصـوم رمضان، ونَحجُّ البيت مع الاستطاعة . قال : فـمـا الخـمسـة الّتي أمـرتكم رسلي أن تؤمنوا بهـا؟ قلنا : نؤمن باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسُله، والبعث بعد الموت . قال : فما الخمسة الّتي كنتم عليها في الجاهليّة؟ قلنا : الرِّضا بالقضاء والقـدر، والشُّكر عند الرَّخـاء، والصَّبـر عند نزول البـلاء،

والثَّبات عند اللّقاء، وترك الشَّماتة إذا نزلت المصائب بالأعداء. فقال رسول اللّه ﷺ: يا لها من خمسة ما أجلَّها، وما أجملَها، وما أحفلَها! احفظوا عنّي تكمل لكم عشرون خصلة: لا تأملون ما لا تدركون، ولا تبنون ما لا تعمرون، ولا تجمعون ما لا تأكلون، ولا تشتغلون بما أنتم عنه راحلون، واتّقوا اللّه الّذي أنتم فيه مؤمنون. فحفظنا ما قال رسول الله ﷺ. فلمّا انصرفنا قال لأصحابه: تَرونَهم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: حُكماء، علماء، و فُهماء، كادوا من فِقههم أن يكونوا أنبياء.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه قال: حدّثني رسول اللّه ﷺ عن ربّه - عزَّ وجلَّ - أنّه قال: ما مِن قومٍ يكونون في حيرة إلاّ استتبعها عبرةٌ، وكلُّ نعيم زائل إلاّ نعيم أهل الجنَّة، وكم هَمٍّ منقطعٍ إلاّ همّ أهل النَّار، فإذا عملتَ سيّئةً فأتبعها حَسَنةً تَمْحُها محواً سريعًا، وأكثر صنائعَ المعروف، فإنَّ صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء، وما من عمل بعد أداء الفرائض أحَبُّ إلى اللّه - عزّ وجلّ - من إدخال السُّرور على المؤمن.

وعن محمّد بن عليّ بن الحَسَن رضي اللّه عنه قال: ما اغرورقت عينٌ بمائها إلاّ حرّم اللّه وجه صاحبها على النّار، فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلّة، وما من شيء إلاّ له جزاء إلاّ الدَّمعة فإنَّ اللّه يُكفِّر بها بحور الخطايا، ولو أنَّ باكيًا بكى في أُمّةٍ لحرّم اللّه تلكَ الأُمّة على النَّار.

قال عليّ رضي اللّه عنه: خذوا عنّي هؤلاء الكلمات، فلو رحلتم فيهنّ المطيّ حتّى تُنضوه ثمّ تبلغوه: لا يرجو العبدُ إلاّ ربَّه، ولا يخشى إلاّ ذنبه، ولا يستحي إذا كان لا يعلم أن يتعلّم، ولا يستحي إذا سُئِلَ عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم. واعلموا أنَّ الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرَّأس من الجَسَد، ولا خير لجسدٍ لا رأس له.

قال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم، لو خاف من النَّار كما يخاف من الفقر لنَجَا منهما جميعًا، ولو رغب في الجنَّة كما يرغب في الغِنى لفاز بهما جميعًا. ولو خاف اللّه في الباطن كما يخاف خَلْقَهُ في الظَّاهر لَسَعَدَ في الدَّارين جميعًا.

قيل للشَّافعيّ رضي اللّه عنه: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ تطلبني ثمانية: اللّه تعالى بالفَرْض، ورسوله ﷺ بالسُّنَّة، والدَّهر بصروفه، والعيال بقوتهم، والحَفَظةُ بما ينطق لساني، والشَّيطان بالمعاصي، والنَّفس بالشَّهوات، وملَك الموت بقبضِ روحي.

ومن رقائق أبي عبد اللّه المغربيّ: تَطهَّرْ من أدناسِ هَوَاك، وتزيَّنْ بلباس تقواك، وقم بمسجد انقطاعك على قدم شكواك، وأحْرِم بتوجيه قلبك إلى قِبْلَة نَجواك تَجد الحقّ عندك، وليس بِسواك.

قال الرَّبيع بن خُثَيم: أقِلُّوا الكلام إلاَّ بِتِسع: تكبير، وتهليل، وتحميد، وسؤالكَ الخير، وتعوُّذكَ من الشَّرِّ، وأمركَ بالمعروف، ونَهْيَك عن المنكر، وقراءة القُرآن، وألاَّ يراكَ اللّهُ حيث نَهاكَ، ولا يفقدكَ من حيث أمَرك.

أراد قومٌ سفراً، فحادوا عن الطَّريق، وانتهوا إلى راهبٍ في صَومعة، فنادوه، فأشرف عليهم، فسألوه عن الطَّريق فقال: ها هُنا، وأشار إلى السماء، فَعلموا الّذي أراد. فقالوا: إنَّا سائلوك. فقال: سلوا ولا تُكثروا، فإنَّ النَّهار لا يرجع، والعمر لا يعود، والطالب حَثيث في طلبه، قالوا: عَلام

النَّاس يوم القيامة؟ قال: على نيَّاتهم، قالوا: فإلام الموئل؟ قال: إلى ما قد تَمَّ. قالوا: أَوْصِنا قال: تَزوَّدوا على قدر سفركم، فخيرُ الزَّاد ما بلَّغ المَحَلَ، ثم أرشدهم إلى الحجة وانقمع.

وقال بعضهم: أتيتُ الشَّام فمررتُ بدير حَرْمَلَة، فإذا فيه راهبٌ كأنَّ عينيه مزادتان، فقلْتُ له: ما يُبكيك؟ قال: يا مُسلم، أبكي على ما فَرَّطت فيه من عمري، وعلى يوم مضى مِن أجَلي لم يحسُن فيه عَمَلي، قال: ثمّ مررتُ بعد ذلك، فسألتُ عنه، فقيل لي: أسلمَ وغزا مع المسلمين، فقُتِلَ في بلاد الرُّوم.

ورُوِيَ أنَّ رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم - رضي الله عنه - فقال: يا أبا إسحاق: إنّي مُسرِفٌ على نفسي، فاعرض عليَّ ما يكون لها زاجراً ومُستنفذاً. قال: إن قبلتَ خمس خصالٍ، وقدرت عليها لم تضركَ المعصية، ولم توبقكَ لذَّة، قال: هات يا أبا إسحاق. قال: أمّا الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله عزَّ وجلَّ - فلا تأكل رزقَهُ. قال: فمن أين آكُلُ، وكُلُّ ما في الأرض رِزْقُهُ؟ قال: يا هذا، أفَيحسُن بكَ أن تأكل رزقه وتعصيه؟ قال: لا، هاتِ الثَّانية. قال: وإذا أردت أن تعصيه

فلا تَسكن شيئًا من بلاده. قال الرَّجل: هذه أعظم من الأولى، يا هذا، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له، فأين أسكن؟ قال: يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه؟ قال: لا هات الثالثة. قال: وإذا أردتَ أن تعصيه وأنتَ تحت رزقه، وفي بلاده، فانظر موضعًا لا يراكَ فيه، فاعصه فيه، قال: يا إبراهيم، ما هذا وهو يطّلع على ما في السرائر؟ قال: يا هذا أفَيَحسنُ بك أن تأكُلَ رزقه، وتسكن بلاده، وتعصيه وهو يراكَ ويعلم ما تُجاهره به؟ قال: لا، هات الرَّابعة. قال: إذا جاءك ملك الموت لقَبْض روحك، فقل له: أخِّرني حتّى أتوبَ توبةَ نَصوحًا، وأعمل للّه صالحًا. قال: لا يقبل منّي. قال: يا هذا، فأنتَ إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنَّه إذا جاءكَ لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟ قال: هات الخامسة. قال: إذا جاءكَ الزَّبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النَّار، فلا تذهب معهم. قال: إذن لا يَدعوني، ولا يقبلون منّي. قال له إبراهيم: فكيف ترجو النَّجاة إذن؟ قال: حَسبي، حسبي، أنا أستغفر اللّه وأتوب إليه، ولزم العبادة حتّى فارق الدُّنيا، رحمة الله عليه.

دخل شبيب بن شبّة على المهديّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ للّه - عزّ وجلّ - إذا قسم منازل الدُّنيا لك أسناها وأعلاها، فلا ترضَ لنفسك من الآخرة إلاّ بمثل ما رضي لك به من الدُّنيا. فَعليك بتقوى اللّه - عزّ وجلّ - فعليكم نزلت، ومنكم أُخِذَت، وإليكم تُرَدّ.

قال بعض العلماء: اعلم أنَّ ما على الإنسان شيء أثقل، ولا أصعب من معالجة اطّراح حُبِّ الدُّنيا عن قلبه، وأنّى له بذلك، ونحن قد خُلقنا من تُربها، وجُبلنا على حبِّها، ودواعي حُبِّ الدُّنيا أكثر من أن تُحصى وتُحصر، وأسبابُ المَيْل إليها، والحرص عليها أظهر من أن تُستَر، وإنّما تميَّزت عند ذوي الألباب، وتبيَّنت لأهل النَّظر، فعاملوها بالرَّفض لها، والاستجناب لما تأمّلوها، فوجدوها لا توفي العاقل حقَّه، ولا تبخس الجاهل حظّه، فنَعيمها غير مُقيم، وبؤسُها لا يَدوم.

قال أبو العَتاهية:

هي الدّار دارُ الأذى والقَذى

ودارُ الفَناءِ ودارُ الغِيَرْ

فلو نِلْتَها بِحَذافيرها

لِمَتَّ ولم تَقْضِ منها الوَطَرْ

أيا مَنْ يُؤَمِّلُ طُولَ الخُلودِ

وطُولُ الخُلودِ عليهِ ضَرَرْ

إذا ما كَبُرْتَ وبانَ الشَّبابُ

فلا خَيْرَ في العَيْشِ بعدَ الكِبَرْ[1]

لمّا بلغ مُداره من الدنُّيا أفضل ما سَمَت إليه نفسه نَبذَها وقال: هذا سرورٌ لولا أنَّه غرور، ومُلك لولا أنّه هُلْك، ومحمود لولا أنّه مفقود، وغَنيٌ لولا أنَّه مُنىً، وارتفاع لولا أنّه اتّضاع. قال الشاعر:

ألا إنَّ الرُكونَ إلى غُرورٍ

إلى دار الفَناءِ مِن الشَّقَاءِ

ودُنيانا وإنْ مِلْنَا إليها

فَطَالَ بها الثَّواءُ إلى انقضاءِ

---

(١) بان الشَّباب: بَعد، ورحل.

ورُوي عن عيسى عليه السَّلام أنّه مُثّلت له الدُّنيا في صورة عجوز هتماء[1]. عليها من كلّ زينة، فقال لها: كم تزوّجت من الخلق؟ قالت: لا أحصيهم عدداً، قال: أفكلُّهم مات عنكِ؟ أم كُلُّهم طلّقكِ؟ قالت: بل كلّهم قتلت. قال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجكِ الباقين كيف لا يعتبرون بالماضين، تُهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منكِ على حَذَر.

قال المأمون: لو سُئلت الدُّنيا عن نفسها ما أحسنتْ أن تصفَ نفسها صفةَ أبي نواس في هذا البيت:

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تَكشَّفتْ

لَهُ عن عَدُوٍّ في ثيابِ صَديقِ

وفي كتاب الهند: مَثَل الدُّنيا، وآفاتها، ومخاوفها، للموت والمَعاد الّذي إليه مصير الإنسان، ما قال الحكيم. قال: وجدتُ مَثَلَ الإنسان المغرور بالدُّنيا المملوءة آفات، مثل رجل ألجأهُ خوف إلى بئر، فَتدلّى فيها، وتعلّق بغُصْنَين نابتين على شفير البئر، ووقعت رجلاه على شيء عَمدهما عليه، فنظر

(١) الأهتم: المكسور الأسنان.

فـإذا بِحـيَّاتٍ أربع قـد أطْلَعْنَ رؤوسَهـنَّ مِن جُحـورِهِنَّ، وقـد نزلت رجلاه عليهنَّ، ونظر أسفل البئر، فإذا بثعبان فاغرٍ فاه نَحـوهُ، فـرفع بَصَرَه إلى الغُصْنَيْن اللَّذين تعلَّق بهـما، فـإذا في أصلهـما بِجرُذين: أبيض وأسـود يقـرضـان الغُصنـين دائبين لا يفترقان، فبينما هو كذلك مُغتماً بنفسه، وابتغى الحيلة في نجاته، إذ نَظَرَ، فإذا بجانبٍ منه جُحر نَحْلٍ قد وضعن فيه شيئاً من العَسل، فتطاعم منه، فوجد حلاوته، فَشغله عن الفكر في أمره والتـماس النَّجاة لنفسه، ولم يذكر أنَّ رجليـه فوق أربع حيَّات لا يدري متى تُساوره إحداهُنَّ، وأنَّ الجُرذَين دائبان في قَرْض الغُصنين اللَّذين تعلَّق بهما، وأنَّهما إذاقطعاهما وقع في لَهواتِ الثُّعبان، فلم يزل لاهيًا غافلاً حتّى هلك.

قـال الحكيم: فَشبَّهت الدُّنيا المملوءة آفات ومـخـاوف بالبئر، وشبَّهت الحيّات الأربع بالأخلاط الأربع الّتي بُني جَسَد الإنسـان عليهـا من المرتين، والبلغم والدَّم، وشبَّهتُ الغُصنين اللَّذين تعلّق بهـما الحـياة، وشبَّهت الجـرذين اللَّذين يقـرضـان الغـصنين دائبَين بالَّليل والنَّهـار، ودورانهـمـا في إفناء الأنام والآجال، وشبّهت الثُّعبان الفاغر فاهُ بالموت الّذي لا بُدَّ منه، وشبَّهتُ العُسَيْلة التي تطاعـمهـا وشَغلت قلبه بهـذه الحـلاوة

القليلة في الدُّنيا التي يرى الإنسان ويسمع، ويطعم، ويلبس، فيُلهيه ذلك عن عاقبة الإنسان، ويسمع ويطعم ويلبس فَيُلهيه ذلك عن عاقبة أمره، وما إليه مصيرهُ.

قال بعض الزُّهَاد: يا بن آدم مالكَ لا تزهَدُ في الدُّنيا، وقد علمتَ يقينًا أنّها فانية؟ ومالكَ تصحب الأيّام بآمالك، وهي بك إلى أجَلَكَ ساعية؟ تقطع بك المسَافات وأنتَ لا تشعر، وتوردُك المهالك وأنتَ لا تنظر، حتّى تبلغك وقتًا تدوم فيه استدراك أمركَ فلا تقدر.

قال الشَّاعر:

تروح لنا الدُّنيا بغير الَّذي غَدَتْ

وتحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ

وتجزي اللَّيالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ

وتطلع فيها أنجمٌ وتَغورُ

فَمن ظنَّ أنَّ الدَّهْرَ باقٍ سرورُهُ

فذاكَ مُحالٌ، لا يدوم سرورُ

قال بعض الحكماء: ممّا تطيب به النَّفسُ، ويُرفع به

الحزن، أن يعرف الرَّجل قدْر الدُّنيا منه، وقدره منها، فقد قيل: إنَّ مَن أهانها أكرَمته، ومَن أكرمها أهانتْه، وإنَّ غناها فَقر، وعِزَّها ذُلٌّ، وصِحَّتها سقم، وإنَّ الإنسان فيها بمنزلة الثَّمرة، وإن لم يفسد بعضها ببعض الآفات، فإنّها تسقط إذا أدركت، أو بمنزلة من احتاطت به السِّباع، وسُدَّت عليه كُلَّ مجاز، فلّما نجا من بعضها اعترضه بعضها حتّى تفترسهُ، كما قيل:

أصبحتُ في دار البَليَّاتِ
أدفعُ آفاتٍ بآفاتِ

قال بعض الحكماء: طالبُ الدُّنيا لا نهايةَ له، ولا يبلغ منها إلى غايةٍ إلاّ طَلَبَ ما وراءها. أخذ هذا المعنى بعضُهم فقال:

إذا ما كُنتَ قد أوتيتَ حالاً
من الدُّنيا سعيتَ بنَيْلِ حالِ
فأنتَ بطولِ دَهْركَ في عناءٍ
كثيرُ السَّير في طَلَبِ المُحالِ

وجد في بعض الكتب المُنزلة: يا بن آدم لو كانت الدُّنيا كلُّها لك، لم يكن لك منها إلاَّ القُوتُ، فإذا أنا أعطيتُكَ منها القوتَ، وجعلت حسابَها على غيرك، فأنا لكَ مُحْسن.

قال الشَّاعر:

النَّفسُ تكلفُ بالدُّنيا وقد علِمَتْ
أنَّ السَّلامَة منها تركُ ما فيها
واللّه لو قَنِعَتْ نَفسٌ بما رزقتْ
مِنَ المعيشة إلاّ سوف تأتيها
أموالنا لذوي الميراث نَجْمَعُها
ودُورنا لخراب الدَّهْرِ نَبْنيها

قال رجل من بني شيبان: نزلتُ على راهب فجادلتُهُ، ثمّ قُلتُ له: يا راهب عظْني. فقال: أأعظُكم وفيكم القُرآن؟ ونَبيُكم محمّد عليه السَّلام؟ قال: قُلت: نعم. قال: فاتّعظ ببيت شاعر منكم يكنى أبا العتاهية:

تجرّدْ من الدُّنيا فإنَّكَ إنّما
خَرَجْتَ إلى الدُّنيا وأنتَ مُجَرَّدُ

وفي صحف موسى عليه السَّلام: مَن أصبحَ حزينًا على الدُّنيا فكأنَّما أصبح ساخطًا على اللّه، ومَن كانت الدُّنيا أكبرَ هَمِّه نُزِعَ خوفُ الآخرة من قلبه، ومن شكا مصيبة نزلت به فكأنَّما شكا ربَّهُ، ومَن لم يُبالِ من أين دخل عليه رزقه لم يُبالِ اللّهُ من أي بابٍ أدخله النَّار، ومَن أتى خطيئة وهو يضحك، أدخله النَّار وهو يبكي، ومن جعل حاجته إلى آدميّ، جَعل اللّه حاجته إليه، فإن شاء قضاها، وإن شاء لم يَقضها.

قال رسول اللّه صلّى الله عليه وسلّم: كانت صُحُف موسى كلّها عبرًا: عجبتُ لمن أيقن بالنَّار ثمّ هو يضحك، وعجبتُ لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح، وعجبتُ لمن أيقن بالقَدر ثم هو يَنْصَبُ، وعجبتُ لمن أيقنَ بالحساب غدًا ثمّ لا يعمل، وعجبتُ لمن رأى الدُّنيا، وتَقلُّبَها بأهلها ثمّ يطمئنُّ إليها.

قال الشَّاعر:

وقَد بدا لي فيما قد هُديتُ لهُ
أنَّ الحَياةَ إلى دارِ البلى سَفَرُ
كيفَ البقاءُ وبابُ الموتِ مُنفَتحٌ
وليسَ يُغلَقُ حتَّى يَنْفَذَ البَشَرُ

# فصل

قال بعض العلماء : ركّبَ اللّه تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة، وركّبَ البهائم من شهوة بلا عقل، وركّبَ الآدميّين من كليهما . فمن غلب عقلُه شهوتَه تشبّه بالملائكة، ومن غلبت شهوتُه عقلَه تشبّه بالبَهائم، فالعاقل كلُّ العاقل مَن ميّز نفسه، وعرف قَدْرَه، ونظر بعين الحقيقة، وأمعنَ الفكرة الصَّحيحة، وعَلِمَ أنَّ جوارحه قد رُكِّبت فيها جميع الشَّهوات، وأنَّ طباعه قد حُبِّبتْ إليها صنوف اللّذّات ، فلا يقدر على قَسْرِها، ولا يتمكَّنُ من صَرْفها وقهرها إلاّ بالمجاهدة، وملك الشَّهوة بخطام التَّقوى، وما أشدَّ، وما أصعبَ! ألا ترى إلى قول النَّبيّ صلى الله عليه وسلّم: «حُفَّت الجنَّةُ بالمكارهِ، وحُفَّت النَّار بالشَّهوات» .

قال الشَّاعر :

صَبَرْتُ على الأيَّامِ حتّى تولّتِ
وألزَمْتُ نَفْسي صَبْرَها فاستمرَّتِ

ومـا النَّفْسُ إلاَّ حـيثُ يَجْعَلُهـا الفتى
فـــإنْ أُطْعِمَتْ تـاقَتْ وإلاَّ تَسَلَّتِ

قـال لُقـمـان لابنه: يا بُنَيَّ! أوَّلُ مـا أُحَذِّرك من نَفْسِكَ، فإنَّ لكلِّ نفس هوىً وشـهوة، فإن أعطيتها شـهوتَها تمادت وطلبت سواها، فإنَّ الشَّهوة كامنةٌ في القلب ككمُون النَّار في الحجر، إن قُدِحَ أورى، وإنْ تُرِكَ توارى.

قـال أفلاطون: في الإنسان أربع طبائع: العـقل، والهوى، والشَّهوة، والعفَّة. فالعقل يُعاتب الهوى، والهوى يقاتل العقل، والعفَّة تعاتب الشَّهوة، والشَّهوة تُقاتل العفَّة، والإنسان مُسلَّط على مشيئته، فمن عمل خيراً جوزي به، ومن عمل شراً كوفىء عليه.

ولله درُّ القائل:

إذا كنتَ في نِعـمـةٍ فـارْعَهـا
فـإنَّ المَعـاصي تـزيلُ الـنِّعَم

وكـم قـد ترددْتَ في مُهْلـةٍ
وَلـم تَرْقـبِ المـوتَ حـتّى هَجَم

قال بعض العلماء : جميع حالات الإنسان راجعة إلى ثلاث منازل : علْيا ، ووسطى ، وسفُلى ، ذكرها اللّه عزَّ وجَلَّ في كتابه ، وجعلها مراتب لعباده ، فقال عزّ من قائل : ﴿وكنتم أزواجًا ثلاثة ، فأصحاب المَيْمَنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسَّابقون السَّابقون ، أولئك المُقرَّبون في جنّات نَعيم﴾ (الواقعة : ٩-١٠) ثم قصَّ الله تعالى أحوالهم ، وقصَّ مآلهم ، فقال سبحانه : ﴿فأمّا إن كان من المُقرَّبين . فروح وريحان وجنَّة نعيم ، وأمّا إن كان من أصحاب اليمين ، فَسلام لك من أصحاب اليمين . وأمّا إن كان من المُكَذّبين الضَّالين . فَنُزُلٌ من حَميم . وتصليةُ جَحيم﴾ (الواقعة : ٨٨-٩٤) وقال تعالى : ﴿ثمّ أورثنا الكتابَ الذَّين اصْطَفَينا من عِبادنا فَمنْهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مُقتصدٌ ، ومِنهم سابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللّه ، ذلك هو الفضلُ الكبيرُ﴾ (فاطر : ٣٢) .

قال بزرجمهر : اجتهدوا في الخير ، واقتصدوا في المعيشة ، وارضوا من المطعم والملبس بأدناهما ، فإنَّ أشدَّ النَّاس اجتهاداً في الخير ، وأحسنهم اقتصاداً في المعيشة سيتمنَّى أنَّه كان زادَ في العمل ، ونقص في المعيشة . ولا يثبت دين الرَّجل

على حالٍ واحدة، إمّا في زيادة أو في نقصان. فإن كان غالبًا للشّيطان كان زائداً. وإن كان الشّيطان غالبًا عليه في الشّهوات كان ناقصًا.

وقال الأسود بن يزيد: واللّه لأجتهدنَّ في العبادة، فإن يكن الأمر عسيراً كما أخاف في الآخرة، كنت قد اجتهدت وأخذتُ بالحزم، وإن يكن يسيراً كما أرجو، كان عملي درجات.

# فصل

قال بعض العلماء: النَّاس في الأوامر والنَّواهي أربعة أصناف: صنف استجابوا للطَّاعات وكَفُّوا عن المعاصي، وهم أكمل النَّاس. وصنف لم يستجيبوا للطَّاعات ولا كفُّوا عن المعاصي، وهم شرُّ النَّاس. وصنف استجابوا للطَّاعات وأقاموا على المعاصي، فهم يستحقّون عقاب المجترئين على المعاصي. وصنف لم يستجيبوا للطَّاعات وكفّوا عن المعاصي، فهم يستحقّون عقاب اللاهي عن دينه.

وللإنسان فيما كلف به من الأعمال ثلاثة أحوال: أن يستوفيه، وأن يزيد فيه، وأن يُقصّر فيه.

أما استيفاء العمل من غير زيادة ولا تقصير فحال الاعتدال، وخير الأمور أوسطها. وأما التَّقصير في العمل فعلى أربعة أحوال:

إحداها: العذر من مريض وغيره، فيلحق صاحبه بالعاملين لسقوط المؤاخذة بما دخل تحت العجز.

الثانية: الاغترار ورجاء العفو، والرَّجاء شاغل عن خوف اللّه.

الثالثة: أما الاستيفاء فيما يستقبل، وذلك لا ينتهي إلى غاية. وما أطال عَبْدٌ الأمل إلا أساء العمل.

الرابعة: استثقال الاستيفاء كمن يفعل الواجب، ويُخلُّ بالمسنونات، فهو مسيء إساءة لا يستوجب بها عقابًا، لأنَّ أداء الواجب يسقط الواجب للعقاب. والإخلال بالمسنون يمنع من كمال الثَّواب، ومَن تهاونَ بالدِّين هانَ.

وأمّا الزِّيادة في العمل فعلى ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون الزِّيادة رياءً. وأفضل الزُّهد إخفاء الزُّهد.

الثاني: أن تكون الزِّيادة اقتداء بأحد الأماثل، ولولا اقتداء النَّاس بالنَّاس في الخير لهلكوا.

الثالث: أن تكون الزِّيادة ابتداء يلتمس بها الثَّواب، وذلك من أعلى رتب العابدين.

والاقتصاد في الزِّيادة مع المداومة أحمد من الاستكثار دونه مداومة، لقوله ﷺ فيما روت عائشة رضي اللّه عنها:

«أيّها النّاس اكلفوا من العمل ما تطيقون، فإنّ اللّهَ لا يملّ من الثّواب حتّى تملّوا من العمل، وخير الأعمال ما ديمَ عليه».

وللأعمال كلّها آفتان.

إحداها: الزّهد، لقوله عليه السَّلام: مَن أشربَ قلبه حُب الدّنيا، وركن إليها، التاط منها بشغل لا يبلغ عناه، وبأمل لا يبلغ مُنتهاه».

الثّانية: توطين النَّفس على ذهاب ما في اليد، وبقاء حسابه. قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «لا تزول قدما ابن آدم حتّى يُسأل عن ثلاث: شبابه فيما أبلاه، وعمره فيما أفناه، وماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه».

الثالثة: قصر الأمل، سئل رسول اللّه ﷺ: مَن أكْيَسُ النَّاس؟ قال: «أكثرُهم ذكراً للموت، وأشدُّهم استعداداً له. أولئك الأكياس ذهبُوا بشرف الدُّنيا، وكرامة الآخرة».

النَّاس في الخير على أربعة أنحاء: منهم من يفعله ابتداءً، وهو الكريم ومنهم مَن يفعله اقتداءً، وهو الحكيم. ومنهم مَن يتركه استجماماً، وهو الرَّديء، ومنهم من يتركه حرماناً، وهو الشَّقيُّ.

وليس الزُّهدُ في الدُّنيا بإهمال النَّفس، وإضعاف الجسم، وإدخال الضَّرر بتقتير العَيش، والتَّعرُّض للمعاطب، والتَّصدّي إلى المهالك. فإنّ استعمال ما تصحُّ به القوى، ويعين على الطَّاعة، والتصرّفُ في جميع أعمال البرّ صلاحٌ بيِّنٌ وواجبٌ متَعيّن، كما أنَّ الزّيَّادة على قدر الحاجة ممنوعة في الشَّرع، والعقل يمنع منهما جميعًا.

# فصل

كان عبد اللّه بن المبارك يقول: الرَّجاءُ يورثُ الشَّوقَ، والشَّوقُ يورثُ الاجتهاد، والاجتهادُ يورث الفكر في النِّعم، والفِكْرُ في النِّعَم يورثُ الشُّكر، والشُّكْرُ يوجب معرفةَ المنَّة، ومعرفة المنَّة تورث مَحبَّة اللّه، ومحبَّة اللّه تورث الزُّهد في الدُّنيا، والزُّهد في الدُّنيا يورث الرَّغبة في الآخرة، والرَّغبة في الآخرة تورث الاشتغالَ بالطَّاعة، والاشتغال بالطَّاعة يورث النَّعيم الدَّائم.

قيل: إنَّ سبب توبة عبد اللّه بن المبارك وزُهده، أنّه كان من أصنع النَّاس في الألحان، وضرب العود، فبينما هو يغنّي ذات يوم:

ألمْ يأنِ لي منكَ أن تَرحْما

وتعصي العواذلَ واللُّوَّما

وترثي لِصَبٍّ بكم مُغْرم
أقام لهجرانكُم مأتَما

إذ سمع من جوف العود هاتفًا يقول: ﴿**ألمْ يأنِ للّذين آمنوا أن تخشعَ قُلوبُهم لذكر الله**﴾ (الحديد: ١٦)، فكسر العود، وساح في البريّة.

وقيل لبعض العلماء: ما علامة الإيمان؟ قال: حُسن الخلائق، واتّباع الحقائق، وبذل المرافق، وحفظ العهود والمواثق، والتّسليم للقدر السّابق. قيل: فما علامة النّفاق؟ قال: نقضُ العهد، وخُلْفُ الوعد، ومنع الرِّفد، والكذب في الهزل والجدّ. قيل: ففيمَ النَّجاة؟ قال: عمل مبرور، وقلب صبور، ولسان شكور، وإدخال سرور، والرِّضا بالمقدور. قيل: ففِيم الهلكة؟ قال: كثرة الفجور، واقتحام الشُّرور، ومطاوعة الغرور، وعصيان الغفور.

وقيل لبقراط: ما أقرب الأشياء؟ قال: الأجل. قيل: فما أبعدها؟ قال: الأمل. قيل: فما أنْفَسُها؟ قال: الصَّاحب المُواتي، قال: فما أوْحَشُها؟ قال: الموت. قيل: فما أحمدُها عاقبة؟ قال: الصَّبر. قيل: فما أذَمُّها عاقبة؟ قال: المعاصي.

قالت هند: الطَّاعة مقرونة بالمحبّة، فالمطيع محبوب وإن نأت داره وقلّت آثاره، والمعصية مقرونة بالبغضة، فالعاصي مبغوض وإن مَسَّك رحمهُ، ونالك معروفه.

قال الشَّاعر:

أراكَ امــــرأً ترجـــو من اللّه عفَـــوهُ
وأنتَ على مـــالا يُحبُّ مُقـــيمُ

فحتَّى متى تعصي وتهفو إلى متى
تبـــارك ربي إنَّه لرَحـــيمُ

قال بعض الحكماء: التَّسويفُ لمن يعلم أنَّ المنيّةَ تأتيه بَغْتَةً غُرور، وتركُ مجالَسة الحكماء حُمق، وطلب الحاجةِ من غير اللّه ذُلّ، وقِلَّةُ معرفة الإنسان بعيوب نفسه أكبر ذنوبه.

رويَ أنَّ ناساً مدحوا أبا بكر الصِّدِّيق - رضي اللّه عنه- فقال: اللّه أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منكم، فأستغفر اللّه ممّا لا تعلمون، وأسأله ألاّ يؤاخذني بما تقولون.

قالت عائشة رضي اللّه عنها: يا رسولَ اللّه، متى يعرف الإنسان ربّه؟ قال: «إذا عرف نفسه».

أوحى اللّه تعالى إلى عيسى عليه السَّلام: عظ نفسكَ، فإن اتّعظْتَ فعظِ النَّاس، وإلاّ فاستحي منّي.

قال الشَّاعر:

ابدأ بنَفْسِكَ وانْهَهَا عن غيِّها

فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حَكيمُ

فهناكَ تُعْذَرُ إن وعظتَ ويُقْتدى

بالقولِ منكَ وينفع التَّعليمُ

لا تنهَ عن خلُقٍ، وتأتيَ مثلهُ

عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

قال بعضهم: السُّنون مراحل، والأنفاسُ خطوات، والطَّاعات رؤوس الأموال، والمعاصي قُطَّاع الطَّريق، والرِّبْحُ الجنَّةُ، والخُسرانُ النَّار.

حُكي عن بعض الأشياخ أنّه رأى اللّه تعالى في النَّوم، فقال له: يا عبدي بِمَ جئتني؟ فقال: يا ربّ جئتك بما ليس في خزائنك، فقال: ما هو؟ قال: الذُّلُّ والانكسار. فقيل له: نِعمَ الزَّادَ زادك، فقد رحمناك.

# فصل

عن ابن عبّاس رضي اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أحبَّ أن يكون أقوى النَّاس فليتوكَّل على اللّه، ومن أحبّ أن يكون أكرم الناس فليتَّقِ اللّه، ومن أحبّ أن يكون أغنى النَّاس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: نعم يا رسول اللّه، قال من نزل وحده ومنع رفده، وجلد عبده، أفأنبئكم بشرٍّ من هذا؟ قالوا: نعم. قال: مَن لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنبًا. أفأنبئكم بشرٍّ من هذا؟ قالوا: نعم. قال: مَن لا يُرجى خيره، ولا يؤمَن شرّه».

قال عبد اللّه بن مسعود: إنَّ أصدق الحديث كتاب اللّه، وأوثق العُرى كلمة التَّقوى، وخير المِلَل مِلّة إبراهيم، وأحسن السُّنَن سنَّة المصطفى ﷺ، وخير الهُدَى هدى الأنبياء، وأصدق الحديث ذكر اللّه، وخير القَصص القرآن، وخير الأمور

عواقبها، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وشرُّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرُّ النَّدامة ندامة القيامة، وشرُّ الضَّلالة بعد الهُدى، وخير الغنى غنى النَّفس، وخير الزَّاد التَّقوى، وخير ما أُلقي في القلب اليقين، وشرُّ العمى عمى القلب، والرِّيب من الفكر، والخمر جمّاع الإثم، والنِّساء حبالة الشيطان، والشَّباب شعبة من الجنون، والنَّوح من عمل الجاهلية، وأعظم الخَطايا الكَذِب، وسُباب المؤمن فسوق، وقتالُه كفر، وحُرمة ماله كحُرمة دمه، ومن يَعْفُ يُعَفُ اللّه عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر اللّه له، ومن يصبر على الرَّزيّة يعقبه اللّه خيراً، وشرُّ المكاسب كسبُ الرِّبا، وشرُّ المآكل مال اليتيم، والسَّعيد من وُعِظ بغيره، والشَّقيُّ من شقي في بطن أمّه، وإنّما يكفي أحدكم ما يقيم به نفسه، وإنّما يصير إلى أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتيمه، وأشرف الموت قتل الشُّهداء، ومن يستكبر يضعه اللّه، ومن يُطع الشَّيطان يَعصِ اللّه، ومن يَعصِ اللّه يُعذِّبْهُ، ومن عَرَف الدُّنيا يفرُعنها، وما قلَّ وكفى خير ممّا كثر وألهى.

قال عبد الواحد بن زيد: جالسوا أهل العلم والدِّين، فإن لم تقدروا عليهم فجالسوا أهل المروءات من أهل الدُّنيا،

فإنّهم لا يرفثون في مجالسهم ، فمجالسة أهل العلم تنتج ذكاء القلوب، ومجالسة أهل الدِّين تجلو عن القلوب صدأ الذُّنوب، ومجالسة ذوي المروءة تدلُّ على مكارم الأخلاق.

أتى رجل إلى ربيعة الرَّأي، فشكا إليه صعوبة دهره وتصرّفه، فقال ربيعة: اكتب:

أليسَ الزَّمانُ كما قد علمتَ

فمالكَ تحزنُ من صَرْفِهِ

وعندكَ عِلْمٌ بهِ ثاقبٌ

وعينٌ تدلُّ على وَصْفِهِ

وأيّامُه دولٌ والنُّفوسُ

رهونُ الحوادث من حَتْفِهِ

فأينَ المُعافَى منَ النَّائباتِ

ومَن صَحِبَ الدَّهرَ لم يعفِهِ

ومَن صَحِبَ الدَّهرَ لاقى الَّذي

ينالُ على الرّغم من أنْفِهِ

فَكُنْ حازمَ الرأي واصْبِرْ لهُ
فَللحُرِّ صَبْرٌ عَلى صَرْفِهِ

ولا تخضَعَنَّ إلى ساقطٍ
ولو كانتِ الأرضُ في كَفِّهِ

وَصُنْ حُرَّ وَجهِكَ عَن بَذْلِهِ
بتلميسك التُّربَ أو سَفِّهِ

فإنَّ اللَّئيم وإن خِلْتَهُ
كريمًا يَذودكَ عن عُرْفِهِ

ويرجع محصولُ أخلاقِهِ
إلى أصْلِهِ وإلى صَنْفِهِ

فلا تسألِ النَّاسَ ما يملكونَ
ولكن سَلِ اللّهَ واستكْفِهِ

فَكُلُّ مُقِلٍّ وذي ثروةٍ
فإنَّ المنيَّةَ من خَلْفِهِ

ومَن يُقْضَ رزقٌ لهُ يأتِهِ
بِكُلِّ مكانٍ ويَسْتَوْفِهِ

ولو جهد النَّاسُ لم يقدروا

على دفع ذاكَ ولا صَرْفِهِ

قال سفيان الثَّوريّ: دخلتُ على جعفر الصَّادق، رضي الله عنه، فقلت له: يا بنَ رسول اللّه، مالي أراكَ سكنتَ دارك، ولا تخالط النَّاس؟ فقال: نَعم يا بنَ سعيد، إنَّ في العزلة دعة، وفي الدَّعة القناعة، وما قُدِّرَ لك يأتيكَ، يا سفيان فَسد الزَّمان، وتغيّر الإخوان، فرأيت الانفراد أسكنَ للفؤاد.

قال بعضهم: ولفساد الزَّمان، وقلّة مَن يسكن إلى مودّته، ويؤمن من خلّته، آثر أهل الفضل مجالسة الكتب، وجعلوها عوضاً ممّا فاتهم من مجالسة الأصحاب، ووصفوها، ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها. ومن ذلك قول الشَّاعر:

لم يبقَ شيءٌ مِن الدُّنيا تُسَرُّ به

إلاَّ الدَّفاترُ فيها الشِّعرُ والسَّمَرُ

ماتَ الّذينَ لهم فَضْلٌ ومَكْرُمَةٌ

وفي الدَّفاترِ من إحسانِهم أثَرُ

قال بعض الحكماء: العزلة عن النَّاس تَصون العِرض، وتستر الفاقة[1]، وتبعث على السَّلامة، وترفع مؤونة المكافأة في الحقوق الّلازمة، وتورث الرَّاحة، وتُبقي حُسْنَ الذكر، وتقصر الأمل، وتؤمن من الملل، وتولّد الفكرة في الآخرة.

قال الشَّاعر:

الحمدُ لله لا شريك لهُ
في صبْحِهِ دائمًا وفي غَلَسِه[2]

لم يبقَ لي مؤنسٌ فيؤنسني
إلاَّ أنيسٌ أخاف من أنسه

فاعتزلِ النَّاسَ ما استطعتَ ولا
تركن إلى مَن يخاف من دَنَسه

والمرءُ يرجو ما ليس يَدْركُهُ
والموتُ أدنى إليهِ من نَفَسه

---

(١) الفاقة: الفقر والحاجة.

(٢) الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح.

# فصل

عن ابن عباس رضي اللّه عنه أنّ رسول اللّه ﷺ قال له: «يا غلام، ألا أعلِّمُكَ كلماتٍ ينفعك اللّه بهنّ؟ احفظ اللّه يحفظْكَ، احفظ اللّه تجدْهُ أمامك، تَعرَّف إلى اللّه في الرَّخاء يعرفْكَ في الشدّة. إذا سألتَ فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه، جفَّ القلم بما هو كائن، فلو اجتمع على أن يُعطوك شيئًا لم يكتبه اللّه لك، لم يقدروا عليه، أو على أن يمنعوك شيئًا كتبه اللّه لك، لم يقدروا عليه، فاعمل للّه بالرِّضا في اليقين. واعلم أنَّ في الصَّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصر مع الصَّبر، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العُسر يُسرًا».

وروي عن أبي الدَّرداء أنَّه قال لرسول اللّه ﷺ: أوصني. قال له: «اكتَسب طيِّبًا، واعمل صالحًا، وسَلِ اللّه رزق يوم فيَوم، واعدد نفسك من الموتى».

وقال رجل لرسول اللّه ﷺ: أوصني. قال له: «اتَّقِ اللّه حيث كنت». قال: زدْني. قال: «أتبع السَّيِّئةَ الحَسَنة». قال: زدني. قال: «خالط النَّاس بخلق حَسَن».

ودخل رجل على عمر بن الخطَّاب، رضي اللّه عنه، فقال له: أوصني. قال له: أوصيك بثلاث: أن تحفظ آلاء[1] اللّه عليك في كُلِّ حالة كنت، وأن تذكر اطّلاع الله عليك في كلّ حالةٍ كنت، وأن تذكر الموت ودخول القبر على أي حالة كنت.

ودخل أبو جعفر محمدّ بن الحسين بن عليّ، رضي اللّه عنهم، على عمر بن عبد العزيز، رضي اللّه عنه، وقد ولاّه، فقال له أبو جعفر: أوصني، فقال له: أوصيكَ بثلاث: أن تتّخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أخًا، وأكبرهم أبًا، فارحم ولدك، وصِلْ أخاك، وبِرَّ والدك، وإذا صنعت معروفًا فَرَبِّهِ.

وقال أبو جعفر المذكور: أدّبني أبي بثلاث خصال، ونهاني عن ثلاث، قيل له: وما هنَّ يا بن رسول اللّه؟ فقال:

---

(١) آلاء الله: نعمه.

من يصحب صاحب السُّوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل السُّوء يتَّهم، ومن لا يملك لسانه يندم، ثم أنشد:

عَوِّدْ لسانَكَ قول الخير تَحْفَظ به
إنَّ اللّسانَ لما عَوَّدتَ مُعتادُ

مُوَكَّلٌ بتقاضي ما سننتَ لَهُ
في الخير والشَّرِّ فانظر كيف ترتادُ

قيل له: صدق، رضي اللّه عنه، فما الَّذي نهاك عنهنَّ؟ فقال: لا تُعاشرْ حاسدَ نعمة، أو شامتًا بمصيبة، أو حاملاً لنميمة. وأنشدني في ذلك:

يموتُ الفتى من عثرةٍ بلسانه
وليس يموتُ من عثرةِ الرِّجْلِ

فعثرتُهُ مِن فيه ترمي برأسه
وعثرتُهُ بالرِّجْلِ تبْرَأ على مَهْلِ

وعن عمر بن عتبة قال: قال لنا أبونا عتبة: يا بَنِيَّ، إنّكم صغار قومٍ لا يُحتاج إليكم، ويوشك أن تكونوا كبارَ قوم آخرين لا يُستغنى عنكم، فعليكم بالعلم والدِّين تنتظم لكم

الدُّنيا، واجعلوا أموالكم واقيةً لأديانكم يكن اللّه جاراً لكم، فإنَّ الموت في طاعة اللّه حياة، والفقر في رضوانه غِنىً، واذكروا ما خُلِقتم له، وخُلق لكم، فإنّه لا ينساكم من وكّل بكم، وإيّاكم والعقوق فإنّه يثمر العقوبة.

وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بُنيّ، إنَّك لن تنال ما تُحبُّ حتّى تصبر على كثير ممّا تكره، ولن تنجو ممّا تكره حتّى تصبر على كثير ممّا تحبّ. وقليل من الذُّلّ يدفع كثيراً من الهوان.

وأوصى آخر ابنه فقال: يا بُنيَّ، نَزِّه نفسَك وسَمَعك عن استماع الخنا كما تُنزِّه لسانَك عن القول بالخَنا، فإنَّ السَّميع شريك القائل، وإنّما نظر إلى شرِّ ما في وعائه، فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة حاسد، وناطقٍ بالأذى في فيه لَسعدَ رادُّها كما شقي قائلها.

وأوصى آخر ابنه، فقال: يا بُنيّ إذا كنت في نادي قوم فَحدِّث القومَ ما حاذوكَ بآذانهم، ولحظوكَ بأبصارهم، فإذا وجدتَ فترةً منهم فأمسكْ، وكُفَّ عن الشَّتم فإنّه أسلمُ للأعراض، ومن سَبَّ سُبَّ. وأحسن جوارك يحسنْ ثناؤك،

وامنع ضيمَ الغريب من القريب، وإذا حُدِّثتَ فَعِ، وإذا حَدَّثتَ فأوجز، فإنَّ مع الإكثار يكون الإهذار[1]، ولا خير فيمن لا رويةَ له مع الغضب، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب.

وقال أبان بن ثعلب شهدتُ أعرابيةً وهي توصي ابنها، وقد أراد سفراً، وهي تقول له: يا بُنيّ، اجلس حتّى أوصيك، وباللّه توفيقك، إنّ الوصيّة أجدى عليك من كثير عقلك. قال أبان: فوقفت أسمع كلامها، فإذا هي تقول يا بُنيّ، إياكَ والنَّميمة فإنّها تزرع الضَّغينة، وتُفرِّق بين المحبيّن، وإيّاك والتَّعرُّض للعيوب فَتُتَّخذَ غَرَضًا[2]، وخليق ألاّ يثبت الغَرض على كثرة السِّهام من النَّاس، وقلّما اعتورت السِّهام غرَضًا إلاّ كَلَمتهُ حتّى يَهِنَ ما اشتدَّ من قُوَّته، وإيّاك والجود بدينكَ، والبُخل بمالكَ، وإذا هززتَ فاهزُزْ كريمًا يلن لهزّتكَ، ولا تهزُز لئيمًا فإنَّه صخرة لا ينفجر ماؤها، ومثّل لنفسك مثال ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبهُ، فإنَّ المرء لا يدري عيبَ نفسه، ومَن كانت مودَّتُه

---

(١) الإهذار: الإكثار من الهذيان.

(٢) الغَرض: الهدف الذي ينصب فيرمي إليه.

لا يصدّقها فعلُه كان صديقه منه على مثل الرِّيح في تصرّفها. واعلم يا بُنَيَّ أنَّ الغدر أقبح ما تعامل به النَّاس بينهم. ومن جمع العلم والسَّخاء فقد أجاد الحلّة ريطتَها وسربالَها[1].

وأوصى رجل صديقًا له، فقال: آثر بعملك معادَك، ولا تَدَع لشهوتك رشادك، وليكن عقلُك وزيرك الَّذي يدعوك إلى الهدى، ويعصمك من الرَّدى، ألجم هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم، فإنَّكم تبرّ بذلك سلَفَك، وتشيد به شرفَك.

وقال بعض العلماء وصيّة: لا يحملنَّك ما ترى من إقبال النِّعمة على الجاهل على الرَّهبة في الجهل، ولا إدبارها عن العالم رغبةَ عن العلم، فإنَّ إقبالها على الجاهل اتّفاق، وإقبالها على العالم استحقاق، وليس مستحقُّ النِّعمة ومستوجبها كحاملها بغير استحقاق.

وقال بعض الصَّالحين لابنه: يا بُنَيّ، نفسك مسترهنة بأعمالك، والأيّام مُقرِّبة لآجالك، فاشتر نفسك ما دامت

---

(١) الريطة: الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، والسِّربال: ما يلبس من قميص.

السّوق قائمة، والثّمن موجودًا، والربح مضمونًا، ولا تُسوِّفها لوقت تكون السُّوق فيه كاسدة، والآمال منقطعة متباعدة، ولا سبيل إلى استدراكها، وقد حيل بينك وبين الثّمن، وهو العمل، وما أحسن قول القائل:

إذا أنتَ لم تزرعْ وأبصرتَ حاصدًا

ندمتَ على التّفريط في زمن البَذْرُ

فالنّجاة النّجاة قبل حلول الوفاة، والعَجل العَجل قبل هجوم الأجل، فالويل كلّ الويل لمن فَرّط حتّى تورّط، وآثر الإمهال حتّى صار في حيّز الإهمال، ثم هجم عليه مفرّق الأحباب، فحينئذ تنقطع به الأسباب، ويُسَدُّ دونه طريق الإياب، ويندم يوم لاَ ينفع النّدم، حين تأخّر ولم يتقدّم، وانظر إلى قول بعض الشُّعراء:

قلتُ للنّفسِ إن أردتِ رُجوعا

فارجعي قبل أن يُسَدَّ الطريق

قال لقمان لابنه: يا بُنيَّ جالس قومًا يذكرون الله بطاعته، فإن كنت عالمًا نفعك علمك، وإن كنتَ جاهلاً علّموك، وإن نزلتْ عليهم رحمة أو رزق كان لكَ فيه معهم

حظٌ. ولا تجالسْ قوماً لا يذكرون اللّه، فإن كنت عالمًا نفعك علمك. ، وإن كنتَ جاهلاً زادك جهلاً، وإن نزلت عليهم لعنة أو سخط شاركتهم فيه.

وقال بعض الحكماء لصاحب له: ارضَ بالقضاء، واصحب الدُّنيا على علاّتها، فإنّكَ لا ترى إلاّ أحد رَجلين: متقدّمًا أخَّره حظُّه، أو متأخِّرًا قَدَّمه حَظُّه، فإن لم ترضَ بالحال الَّتي أنتَ فيها وإن كانت دون أملكَ واستحقاقك اختياراً، وإلاَّ رضيتَ بها اضطراراً. قال الشّاعر:

اصبرْ على القَدَرِ المحتومِ وارضَ بهِ

وإنْ أتاكَ بما لا تشتهي القَدَرُ

وقال آخر لصاحب له: إيّاك أن تُدنِّس عرضَكَ بالمعاصي، فإنَّ الماءَ لا يغسله، ولا تستغفر لذَنْبكَ إلاَّ ربَّك، فإنَّ سواه لا يغفره، وأخلص للّه عَمَلَك لعلّه سيقبلُهُ. وفي مثل هذا يقول الشّاعر:

الماءُ يغسلُ ما بالجسمِ من دَنَسٍ

وليسَ يغسلُ قلبَ المُذْنبِ الماءُ

قال بعض العلماء : إذا ابتليت فَثِق بالله ولا تجزع ، وإذا عوفيتَ فاشكر الله ولا تقطع . وإذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع ، وفَوِّض أمرك إلى الله فَنِعمَ الملجأ ونِعْمَ المرجع ، فإذا فعلتَ فقد فزتَ بخير الدّارين أجمع .

قال الشّاعر :

إذا ابتُليتَ فثق باللهِ وارضَ بهِ

إنَّ الَّذي يكشفُ البلوى هو اللهُ

إذا قضى اللهُ فاستسلمْ لقُدْرتهِ

ما لامرىءٍ حيلةٌ فيما مضى اللهُ

اليأسُ يقطع أحيانًا بصاحبهِ

لا تيأسنَّ فنعمَ القادرُ اللهُ

وقال بعض العلماء لابنه : يا بُنَّي ، إيّاكَ والجزع على ما فات ، والطَّمع فيما لا يُرجى ، وما اشتدَّ خطبٌ إلاَّ وأعقبه فَرَج ، ولا انسدَّ بابٌ إلا سوف ينفرج ، فإنّ الله - عزَّ وجلَّ - قد جعل مع العسر يُسرين ، وجعل في الصبر خير الدّارين ، وما زال مع الصَّبر الظَّفر والأُنس . ومع الجزع الكدرُ واليأس ،

فاختر لنفسك ما يُدنيكَ إلى اللّه ويُقربُكَ، واطرح عنها ما يحزنكَ ويُكربُكَ. قال الشاعر:

لا تجـــزعَنْ إنْ مَضَتْ للخَطْبِ أيّامُ

فَرُبَّمـا سـاعَدَتْ للسَّعـد أعـوامُ

وإن تعـرَّضَ عُسْرٌ فـانتظر فَرَجًا

صـرف اللّيـالي كـذا بؤسٌ وإنعـامُ

وقالت أعرابيّة لابنها: يا بُنَيَّ، عليك بحُسْنِ الخُلُقِ، وجميل العِشرة، ولُطف الموافقة، ولين الجانب، والاحتمال للصَّاحب، وكفّ الأذى، والمقاسمة في العزاء، فإنّك تستميل القُلوبَ، وتنال كُلَّ مرغوب، ويحفظُكَ علاَّم الغيوب.

وأوصى طاوس رجلاً فقال له: إنّي أجمع لكَ العلم كلّه في ثلاث كلمات: خَفِ اللّه حتّى لا يكون أحد أخوف لك منه، وارجُ اللّهَ حتّى لا يكون أحد أرجَى عندك منه، وأَحِبَّ اللّه حتّى لا يكون أحدٌ أحبَّ إليك منه، فإذا فعلت ذلك فقد علمتَ علمَ الأولين والآخرين.

وقال بعضهم: أكثر من مخالطة أهل الأدب، فإنَّ صلاح الأخلاق وفسادها كثيراً ما يكون ذلك على قدر أخلاق

الَّذين تطيل صحبتهم، وتواظب على معاشرتهم، وكثيراً ما يُفْسِدُ الطَّبعَ الحَسَنَ معاشرة أهل الجهل والرِّيب، فانظر من تصحبه، فإنَّك موسوم بسِيْما مَن صَحِبتَ، فتحفَّظ من دُخلاء السُّوء، وأظهر مجانبةَ أهل الرِّيب، وإذا نظرتَ فيمَن ترتاد لإخائكَ، فإن كان من أهل الدِّين فليكن فقيهًا غير مُراءٍ ولا حريص، وإن كان من إخوان الدُّنيا، فليكن حَيِيًّا غير جاهل، ولا كذَّاب، ولا شرِّير، فإنَّ الجاهل أهلٌ أن يفرَّ عنه أبواه، وإنَّ الكذَّاب لا يصدق في مودّته، وإنَّ الشِّرِّير إن سلمتَ مِن شرِّه أكسبَكَ شرَّ غيره.

# فصل

## من المنقول من تأليفنا «تذكرة من اتَّقى»

قال لقمان الحكيم لابنه: يا بُنيَّ، لا تركن إلى الدُّنيا، ولا تشغل قلبك بِحبِّها، فإنَّك لم تُخلق لها. وما خلق اللّه خلقًا أهونَ عليه منها، لأنَّه لم يجعل نعيمها ثوابًا للمطيعين، ولا عقوبة للعاصين، يا بُنيّ، إنَّ الدُّنيا بحرٌ عريض قد هلك فيه بَشر كثير، فإن استطعت أن تجعل سفينتك الإيمان باللّه، وعدَّتك التَّوكُّل على اللّه، وزادك التَّقوى، فإن نجوتَ فبرحمة اللّه، وإن هلكت فبذنوبك. يا بُنَيّ، لا تضحك من غير عجب، ولا تَمش في غير أرب، ولا تسأل عمّا لا يعنيك، يا بُنيَّ، لا تَضيّع مالك، ولا تُصلح مال غيرك، فإنّ مالكَ ما قدّمت، ومال غيرك ما تركت. يابُنيّ، إنَّ من يَرحم يُرحم، ومن يَصمت يَسلم، ومن يَقُل الخير يغنم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وأوصى رجل من الحكماء بَنيه، فقال: يا بَنِيَّ، إيّاكم والجزع عند المصائب، فإنّه مَجلبة للهمّ، وسوء ظنٍّ بالرَّبِّ، وشماتة للعدوّ، وإيّاكم أن تكونوا بالأحداث مُغترّين، ولها آمنين، فإنّي والله ما سخرت من شيء إلاّ نزل بي مثله، فاحذروها وتوقّعوها، فإنّما الإنسان في الدُّنيا غَرضٌ تتعاوره السِّهام، فَمُجاوز له، ومُقصرٌ عنه، وموقّع عن يمينه وشماله حتّى يصيبه بعضها واعلموا أنَّ لكلّ شيء جزاءً، ولكلّ عمل ثوابًا. وقد قالوا: كما تدين تُدان، ومَن يبرّ يومًا بُرَّ به.

وأوصى عمر بن الخطّاب- رضي الله عنه- ابنه عبد الله، فقال: يا بُنيَّ اتّقِ الله فإنَّ مَن اتَّقى الله وقاه، ومَن اتّكل عليه كفاه، ومَن شكر اللهَ زاده، ومن أقرضه جزاه، فَاجعلِ التَّقوى عمادَ قلبك، وجلاء بصرك، فإنَّه لا عمل لمن لا نيَّةَ له، ولا خير لمن لا خشية له.

وأوصى عبد الملك بن مروان بَنيه، فقال: يا بَنيَّ كُفُّوا أذاكم، وابذلوا معروفَكُمْ، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئلتم، ولا تُلْحفوا إذا سألتم، فإنَّه مَن ضيَّقَ ضُيِّقَ عليه، ومن أعطى أخلفَ اللهُ له.

وأوصى عليٌّ بن أبي طالب للحسَن والحُسين- رضي الله عنهم- فقال: تنافسوا في المعالي، وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا الحمد بالجود، ولا تكتسبوا بالبخل ذمًّا، ولا تَعِدوا معروفًا لم تعجلوه، ومهما تكن لأحدكم عند أحد نعمة لم يبلغ شكرها، فالله أحسن لردّها أجرًا، وأجزل عليها حظًّا، واعلموا أنّ أفضل المال ما أكسبَ حمدًا وأعقب أجرًا، وقد سمعت رسول الله، ﷺ، يقول: «ما عظمت نعمة اللّه تعالى عند أحد إلاّ كثرت حوائج النَّاس إليه، فمن ملَّ تلك الحوائج، فقد عرّض تلك النّعمة إلى الزَّوال.

قال ابن العربي: قلت لبعض أشياخي: أوصني، فقال: اقطع علائق الدُّنيا عنك إلاّ ما لا غنى لك عنه، وتأهَّب لأمرٍ لا بُدَّ لك من المصير إليه، واعرف الحقَّ لغيرك يَعرفْهُ لك، ولا يقف بك التَّحيُّر عن أمرين إلاّ أخذتَ أقربهما إلى التَّقوى.

## فصل

### من المنقول من تأليفنا «مقالات الأدباء»

قـال بزرجمـهر لابنه: يا بُنيَّ، كن من الكريم على حَذر إن أهنتَهُ، ومن اللئيم إن أكرمتَهُ، ومنَ الفاجر إن عاشرته، ومن الأحمق إن مازحتهُ، ومن العاقل إن أحرجتَهُ، وكن حذراً كأنَّك غرٌّ، وكن فطناً كأنَّك غافل، وكُن ذاكراً كأنَّك ناسٍ.

قال بعض الحكماء في وصيّة: لا تطلب من صاحبكَ خلقًا واحداً وهو ذو طبائع أربع، فإنَّ في تكليف هذا خروجًا من العدل، ألا ترى أنَّ اللّه سبحانه شوَّق الجنَّة إلى خلقه بضروب متفاوتة، وأشياء متباينة، فقال عزَّ وجهه: **﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسنٍ، وأنهارٌ من لبَنٍ لم يتغيَّر طَعْمُهُ، وأنهارٌ من خَمْرٍ لَذَّةً للشَّاربينَ، وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى﴾** (محمد: ١٥). وقال: **﴿فيها فاكهةٌ ونخلٌ ورُمّان﴾**

(الرحمن: ٦٨). وقال: ﴿وحورٌ عينٌ كأمثالِ اللُّؤلؤ المكنونِ﴾ (الواقعة: ٢٢-٢٣). فوصف جلَّ ثناؤه ضروبًا مختلفة مما فيها ليميل كلُّ فريق لما اشتهى منها.

وقال بعض الحكماء في وصيّة: إذا أعجبكَ ما تواصَفَهُ النَّاس من محاسنك، فانظر فيما بطنَ من مساويك، ولتكن معرفتُكَ بنفسكَ أوثقَ عندك من مدح النَّاسِ لك.

وأوصى أزدشير لابنه فقال: يا بُنَيَّ إنَّ المُلْكَ والعَدْلَ أخوان، لا غِنَى لأحدهما عن صاحبه، فالمُلْكُ أُسٌّ والعدل حارسٌ، فما لم يكن له أسٌّ فمهدوم، وما لم يكن له حارسٌ فَضائعٌ، يا بُنَيَّ اجعل حديثَكَ مع أهل المراتب، وعطيَّتَكَ لأهل الجهاد، وبِشْرَكَ لأهل الدِّين، وبِرَّكَ لمن عَنَاهُ ما عنَاكَ من ذوي العقول.

وقال المنصور لولده: يا بُنَيَّ لا تُبرم أمرًا حتَّى تُفَكِّرَ فيه، فإنَّ فِكرةَ العاقل مرآته، تُريه حَسناته وسيِّئاته، واعلم أنَّ الخليفة لا يُصلحهُ إلاَّ التَّقوى، والسُّلطان لا يُصلحهُ إلاَّ الطَّاعة، والرَّعيَّة لا يُصلحها إلاَّ العدل، وأولى النَّاس بالعفو أقدرُهم على العقوبة، وأنقصُ النَّاس عقلاً مَن ظَلَم مَن دونَهُ.

وقال ابن عبّاس رضي اللّه عنه: لا يُزهدنَّكَ في المعروف كفر مَن كفره، فإنّه يشكرك عليه مَن لم تصطنعه إليه، وإنّي واللّه ما رأيتُ أحدًا أسعفتُهُ في حاجة إلاّ أضاء ما بيني وبينه، ولا رأيتُ أحدًا رددتُه عن حاجة إلاّ أظلمَ ما بيني وبينه.

وقال الأصمعيّ: قال لي الرَّشيد أوَّل يوم عزم فيه على تأنيسي: يا عبد الملك، أنتَ أحفظ منَّا، ونحن أعقلُ منك، لا تُعَلِّمنا في مَلاء، ولا تُسرع إلى تذكيرنا في خلاء، واتركنا حتّى نبتدئك بالسُّؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه فلا تَزد، وإيّاك والبدار إلى تصيديقنا، وشدّة العجب بما يكون منَّا، وعلّمنا من العلم ما نحتاج إليه على عيبات المنابر، وفي فواصل المخاطبات، ودَعْنا من رواية حوشيّ الكلام، وغرائب الأشعار، وإيّاك وإطالة الحديث إلاّ أن نستدعيَ ذلك منك، ومتى رأيتنا صادفين عن الحقّ، فأرْجعنا إليه من غير تقرير بالخطأ، ولا إضجار بطول التّرداد. قال الأصمعيٌّ: فقلتُ له: يا أمير المؤمنين، أنا إلى حفظ هذا الكلام أحوج منِي ّإلى كثير مِنَ البِر.

قال عمر بن الخطَّاب - رضي اللّه عنه في وصيّة: لا يقعد أحدُكم عن طلب الرِّزق ويقول: اللهمَّ ارزقني، وقد

علم أنَّ السَّماء لا تُمطِرُله فِضَّةً ولا ذَهَبًا، وليعلم أنَّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ يرزقُ العبادَ بعضهم من بعض.

قال محمّد بن حازم الباهليّ لابنه: يا بُنَيَّ، إذا سألتَ الحوائج فتأمَّل بها الصِّباحَ الوجوه من ذوي العناصر السَّنِيَّة، والشِّيَمَ المرضيّة، واحذر ذوي الوجوه العابسة، والأكفَّ اليابسة، أصحاب القراريط[1]، وكَسَبة الدَّوانيق[2]، المعروفين بالضِّيق، المنسوبين إلى التَّدقيق، الذين إن سُئلوا ضنُّوا، وإن أعطوا منُّوا، فلا تخلقنَّ بالطَّلب إليهم وجهك، ولا تُدنس بالسَّعي إليهم عِرضَكَ. وعليكَ بمن أنعم اللّهُ على وجهه بالصَّباحة، وعلى كفِّه بالسَّماحة، فأولئك هم المعروفون بالصَّبر على ما ينوبهُم من ملمَّات الرِّجال.

وقال الشَّعبيُّ في وصيّة: عليكَ بالصِّدق حين تظنُّ أنَّه يضرُّك فإنَّه ينفعكَ، وإيّاكَ والكذب حيث ترى أنَّه ينفعكَ فإنَّه يضرُّك، واعلم أنَّه لا جُنَّةَ[3] أوقى من الصِّدق، ولا شيءَ

(١) القراريط، جمع قيراط: معيار في الوزن، وفي القياس. فهو في الوزن أربع قمحات، وفي القياس جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الفدّان.
(٢) الدوانيق: جمع دانق: وهو سدس الدرهم.
(٣) الجُنَّة: الوقاية.

أقوى من الحقِّ، ولا سبيل أخوفُ من الكذب، ولا حادث أقبح من الزُّور، وقد ينتج اللّه للصَّادق النَّجاة العظيمة، وإن لم يَنْوِها، والخلاصَ من النَّازلةِ وإن لم يتوهَّمها.

وأوصى رجل ابنه، فقال له: يا بُنيَّ إذا كنتَ في قومٍ فَدبِّر بينهم تدبيراً، فلا تُعجِّل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم، ولا تتكبَّر عن مُتابعتهم إذا ظهر لك الحقّ، فإنَّ المُتابعةَ على الصَّواب أحسن من الابتداء بالخطأ. واعلم يا بُنَيّ أنَّ إصابتَك الرَّأي بعد خطأ القوم أحمدُ لك من إصابتك قبل كلامهم. فإنَّه لا يُعرفُ فضلُ رأيك على غيره إلاَّ بعد المعرفة بما عندهم، فعند ذلك يستبينُ القول السَّديد من السَّفيه، والرأي الرَّشيد من الكريه، ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضعَ الخطأ.

# فصل

لما حضرت يونانَ الوفاةُ أوصى ابنه فقال له: يا بُنيَّ إني قد وافيت الأجل، وقربتُ من الحَتم، وإني راحل عنكَ ومُفارقُك، ومُفارق أهل بيتكَ وإخوتك، وقد كانت أحوالكم حَسَنَةَ النِّظام، وكنتُ لكم كهفًا في الشَّدائد، وعَونًا على المحن، ومجنًّا[1] في الرَّزايا، فعليك بالجود، فإنَّه قُطب الملك، ومفتاح السِّياسة، وباب الرِّئاسة، ودرج السِّيادة، وكم حريصًا على اقتناء الرِّجال بالإنعام عليهم تكن سيِّدًا رشيدًا، وإيّاك والحيدة عن الطَّريقة المُثلىَ الّتي عليها مَبنى العقل، فإنَّ من ترك رأي اللّبِّ، وثمرة العقل، تورَّط في المهالك، ووقع في مغائص التَّعب.

وأوصى لقمان ابنه، وقد أراد سفرًا، فقال: يا بُنيَّ إذا سافرتَ فلا تَنَمْ على دابَّتِكَ، فإنَّ كثرة النَّوم عليها يسرع في

---

(١) المِجَنُّ: التُّرس.

دبرها، وإذا نزلتَ بأرض مُكْلِتة[1] فأعطها حظَّها من الكلأ، وابدأ بعَلْفها وسَقْيها قبل نفسَكَ، فإذا بعدت عليكَ المنازل فعليك بالدَّلَجِ[2]، فإنَّ الأرض تُطوى بالليل، وإذا أردت النزول فلا تنزل على قارعة الطَّريق فإنّها مأوى الحيّات والسِّباع، وعليك من بقاع الأرض بأحسنها لونًا وألينها تربة، وأكثرها كلأً فانزل بها، وإذا نزلتَ فَصَلِّ ركعتين قبل أن تجلس، وقُلْ: ﴿رَبِّ أنزلني منزلاً مُباركًا وأنتَ خيرُ المُنزلين﴾ (المؤمنون: ٢٩) وإذا أردت قضاء حاجة فأبعد المذهب، وعليك بالسُّترة، وإذا ارتحلتَ من منزل فَصَلِّ ركعتين، وودِّع الأرضَ الَّتي ارتحلتَ عنها، وسَلِّم عليها، وعلى أهلها، فإنَّ لكلِّ بقعةً أهلاً من الملائكة، وإذا مررتَ ببقعة أو وادٍ، أو جبل، فأكثر من ذكر الله، فإنَّ البقاع والجبال تنادي بعضها بعضًا: هل مرّ بكم اليوم ذاكر لله؟. وإن استطعت ألاَّ تطعم طعامًا حتّى تتصدَّق منه فافعل، وعليك بذكر الله ما دمتَ راكبًا، وبالتَّسبيح ما دُمتَ صائمًا، وبالدُّعاء ما دُمتَ خاليًا، وإيّاكَ والسَّيرَ في أوَّل اللّيل، وعليك بالتَّغليس والدُّلجة من وسط اللَّيل إلى آخره، وإيّاك ورفع الصَّوت في سيرك إلاّ بذكر

(١) أرض مُكلتة: معشبة.

(٢) الدَّلج: السير بالليل

اللّه، وسافر بسيفك وقوسك، وتزوَّد معك الأدوية تنتفع بها ومَن معك من أصحابك المرضى والزَّمنى[1]، وكُن لأصحابك موافقًا في كل حال، فإذا استغاثوك فأغثهم، وإذا استشهدوا بك على الحقّ فاشهد لهم، واجهد رأيَكَ، فإذا رأيتهم يمشون فامشِ معهم، أو يعملون فاعمل معهم، وإن تصدَّقوا بصدقة، أو أعطوا شيئًا، فأعطِ معهم، واسمع ممّن هو أكبر منك، وإن تحيّرتم في طريق فانزلوا، فإن شككتم في القصد فتثبّتوا وتأمَّروا، فإن رأيتم خيالاً واحدًا فلا تسألوه عن طريقكم، فإنَّ الشَّخص الواحد في الفلاة هو الذي يحيّركم، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فإنَّ العاقل إذا أبصرَ الشَّيء عرف الحقَّ بقلبه.

وأوصى بعض العلماء ابنه، فقال له: اعلم يا بُنَيَّ أنَّ الأدب أفضلُ الأثاث، وأنَّ المروءة أفضل الميراث، والأدب زينة الحسَبَ، وصلة في المجالس، وأُنس في الوحدة، وعَونٌ في المروءة، وإنّما المرءُ بمروءته، وأصلُ المروءة اجتناب المرء ما يشينه، واختياره ما يزينه، ولا مروءة لمن لا أدبَ له، ولا أدبَ لمن لا عقل له، قال الشّاعر:

---

(١) الزَّمِنُ: الذي مرض زمنًا طويلاً، وضعف بكبر سنّ أو مطاولة علّة.

ومـــا أدَّبَ الإنســـانَ شيءٌ كـــعـــقلهِ

ومـــا عـــقلُهُ إلاَّ بِحُـــسْنِ التَّـــأدُّبِ

فـواظب يا بُنيّ على طلب الأدب جـهـدك، واشـغل به عقلك، وتَدبَّر منه في الملأ ما يزينكَ في الملأ، قال الشَّاعر:

تَـعلَّـمْ فَـليسَ المرءُ يـولَـدُ عـــــالمًا

وليسَ أخـــو عِلْمٍ كـــمنَ هو جـــاهِلُ

وإنَّ كـــبـــيـــرَ القَـــوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ

صَـــغـــيـــرٌ إذا التـفَّتْ عليـه المحـــافِلُ

وقد رسـمتُ لك يا بُنيَّ رسمًا إن لزمتَهُ أجلَّكَ الملوك، وانقـادَ لك السُّوقة والصَّعاليك، يا بُنيَّ، أوَّل ما أوصيكَ به تقوى اللّه تعالى، والشُّكر له في السِّرِّ والعَلانية، وامتثل قول الشَّاعر:

ليسَ الـظَّريفُ بكامـلٍ في ظَرْفِـــهِ

حـــتَّى يكونَ عَن الحـــرامِ عَـــفـــيـــفـــا

فـــإذا تَورَّعَ عَن مَـــحـــارمِ ربِّه

فَـــهُناكَ يُدعى في الأنامِ ظريفـــا

واعلم يا بُنَيَّ أنَّ الشُكْرَ مَزاد، والتَّقوى خير زاد، قال الشَّاعر:

ولستُ أرى السَّعادةَ جَمْعَ مالٍ

ولكنَّ التَّقِيَّ هو السَّعيدُ

فَتَقوَى اللّهِ خيرُ الزَّادِ ذُخْرًا

وعند اللّهِ للأتْقَى مَزيدُ

وما لا بُدَّ أن يأتي قَريبٌ

ولكنَّ الّذي يمضي بَعيدُ

يا بُنَيّ، إذا اجتمعت عليكَ أشغالٌ جَمَّة، فابدأ بأَحبِّها إلى اللّه عزَّ وجَلَّ وأحمدها عاقبة، ففي ذلك قول الشَّاعر:

اعمل وأنتَ مِنَ الدُّنيا على حَذَرٍ

واعلم بأنَّكَ بعدَ الموتِ مبعوثُ

واعلم بأنَّكَ ما قَدَّمْتَ مِن عَمَلٍ

مُحصىً عليكَ وما خَلَّفتَ موروثُ

واعلم يا بُنَيّ أنَّ الصَّبرَ أفضلُ الأعمال وأحصن المعاقل،

فعليك بالصَّبر على طاعة الله عزَّ وجَلَّ على ما أحبَّ النَّاسُ أو كرهوا، فقد قال الشَّاعر:

صبرتُ ومن يصبر يجد غبَّ صبرهِ

ألذَّ وأحلى من جَنى النَّحل في الفَمِ

يا بُنيَّ استغْنِ عن النَّاس جهدك يحتاج النَّاس إليك، واعلم أنَّ أغنى النَّاس عن النَّاس مَن أفردَ اللّه بحاجتهِ، وما استغنى أحدٌ باللّه إلاَّ افتقرَ النَّاسُ إليه، قال الشَّاعر:

اضرع إلى اللّهِ لا تضرَعْ إلى النَّاسِ

واقنع بيأسٍ فإنَّ العِزَّ في الياسِ

واستغنِ عَن كُلِّ ذي قُربى وذي رَحِمٍ

إنَّ الغَنِيَّ مَن استغنى عن النَّاسِ

يا بُنَيَّ، لا تزهدنَّ في معروف، فإنَّ الدَّهرَ ذو صرُوف، فكن مِن طالب كان مطلوبًا إليه، وراغبٍ صار مرغوبًا ما لديه، واعلم أنَّ الزَّمان ذو ألوان، ومَن يصحب الزَّمان يرى الهوان، وكن كما قال الشَّاعر:

وَعْدٌ من الرَّحمن فضلاً ومنّةً

عليك إذا ما جاءَ للعُرف طالبُ

ولا تَمنعَنْ ذا حاجةٍ جاءَ راغبًا

فإنَّك لا تدري مَتى أنتَ راغبُ

رأيتُ الْتِوا هذا الزَّمانِ بأهلهِ

وبينهمُ فيهِ تكونُ العجائبُ

يا بُنَيّ، إذا فعلتَ معروفًا فلا تَمُنَّ به، فإنَّ المِنَّةَ تهدم الصَّنيعة، وتُحبط الأجر وتُسقط الشكْر، ولذلك قال الشَّاعر:

فلا تَكُ منَّانًا بخيرٍ فعلتَهُ

فقد يُفْسدُ المعروفَ بالمنِّ صاحبُهْ

وكن يا بُنيَّ أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقلَّ ما تكون في الباطنِ مآلاً. واعلم أنَّ الكريم قد كرُمت عند الحاجة طبيعته، وظهرت عند الافتقار نعمته، قال الشَّاعر:

ولا عار إن زالتْ عن المرء نعمةٌ

ولكنَّ عارًا أن يزولَ التَّجَمُّلُ.

يا بُنَيّ، عليك بالوفاء، فإنَّه يدعو إلى التُّقى، واعلم أنَّه لا يتمُّ كرمُ المرء إلاّ بِحُسنِ وفائه، ولذلك قال الشّاعر:

إن الوفاء بعهد اللّه عادتُنا

ولا يفي بِعُهودِ اللّه كذَّابُ

يا بُنَيّ، إذا وعدتَ أحداً عِدَةً فَتَمِّمها وعَجِّل بها، وإيّاكَ أن تقول: لا، فيما قُلت فيه: نعم: وامتثل قولَ عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه:

ولا أقولُ: نَعم يومًا وأُتْبِعُها

بلا ولَوْ ذَهَبتْ بالمالِ والوَلَدِ

يا بُنَيّ، خذ في أمورِكَ بالأناة وحُسن التَّثبُّت تَسلم من عتاب الإخوان عند عواقبها، كما قال الشَّاعر:

قد يُدركُ المتأنّي بعض حاجَتِهِ

وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

يا بُنَيّ، إذا ائتمنَك أحد على أمانةٍ فَالْهُ عن ذكرها حتّى تُسلِّمها مصونةً إلى أهلها، ففي ذلك قال الشَّاعر:

وإذا ائتُمِنْتَ على الأمانة فارْعَها

إنَّ الكريمَ إلى الأمانةِ راعي

يا بُنَيّ، الْقَ صديقك وعدوكَ بوجه الرِّضى، وكُفَّ الأذى من غير ذِلَّة لهم، ولا رهبة منهم، وكن في الأمور متُوسِّطًا، فإنَّ خير الأمورِ أوساطها، وكن للإخوان في الحضر، وللرُّفقاء في السَّفر. قال الشَّاعر:

وكنتُ إذا صَحِبتُ رجالَ قومٍ

صحبتُهم وشيمتيَ الوفاءُ

فأُحسنُ حينَ يُحسنُ مُحسنوهم

وأجتنبُ الإساءةَ إن أساؤوا

أشاءُ سِوى مشيئتهم فآتي

مَشيئتَهم وأتركُ ما أشاءُ

يا بُنَيّ، أكرم عِرضَكَ، صُنْهُ جهدك، اجعل مالكَ وقاية لعرضك، اجعل عِرضَك وقاية لدينك. كُن كما قال الشَّاعر:

أقي بمالي عِرضي ولا أُدَنِّسُهُ

لا باركَ اللّهُ بعد العِرضِ في المالِ

أحتالُ في المالِ إن أودَى فأكسبُهُ

ولستُ للعرضِ إن أودى بِمُحتالِ

يا بُنَيّ، كن حذراً كأنّكَ غِرٌ، وكن ذاكراً كأنّكَ ساهٍ، وكن فَطِنًا كأنّك غافِل، فإنّ اللّبيب للعاقل هو الفَطِنُ المتغافل، وإذا اعتذر إليك أحدٌ من قولٍ بلَغَتْهُ عنه، أو سمعته منه، فاقبل معذرته، ولا تَدع صلته، فتكون قد جعلت صديقًا عدواً.

وفي ذلك يقول الشّاعر:

ومَن لا يُغَمِّضْ عينَهُ عَن صَديقهِ

وعَن بعضِ ما فيه يَمُتْ وَهْوَ عاتبُ

يا بُنَيّ، كُن جواداً بالمال في موضع الحقّ، بخيلاً بالسِّرّ على جميع الخَلْق، فإنّ من تَمام كَرم الحُرّ القيام بالبِرّ، والبُخْل بمكتوم السِّرّ، كما قال الشّاعر:

أجودُ بمَمنوعِ البلادِ وإنّني

كَتُومٌ لأسرارِ العَشيرِ أمينُ

وعندي لهُ يوماً إذا ما اؤتمنتهُ

مكانٌ بسوداء الفؤاد كَنينُ

يا بُنَيّ، فإن التبسَ عليك أمر، فشاور لبيبًا، وإذا أرسلتَ رسولاً، فليكن حليمًا، فإن لم يكن حليمًا، فكن رسولَ نفسك، فإنَّ مشاورة اللَّبيب قُوَّة لرأيك، وحلم رسولكَ جزمٌ في أمورك، وفي ذلك قال الشَّاعر:

إذا كنت في حاجةٍ مُرسلاً

فأرسل حكيمًا ولا تُوصِهِ

وإنْ بابُ أمرٍ عليكَ الْتَوى

فَشاورْ لبيبًا ولا تَعصِهِ

يا بُنَيّ، إذا استشارك عدوٌّ أو صديق، فامنحهُ النَّصيحة، فإن فعلت قلتَ بالحكمة، وبرئتَ من التُّهمة، وفي ذلك قال الشَّعر:

أَشِرَ اليومَ علينا بالهُدى

فمتَى يُستَشارِ الحُرُّ يُشِرْ

ولا تدع يا بُنَيّ مواصلة الكريم، وفرَّ الفرارَ كُلَّهُ منَ اللَّئيم، فإنّه لا يستقيم لكَ ودُّهُ إلاَّ من حاجته إليك، أو فرق منك، فإن استغنى عنكَ كان عليك، وإذا احتجتَ إليه هنْتَ عنده. قال الشَّاعر:

إنَّ مَن أحْـــوَجَكَ الـدَّهرُ إليــــه

وتَعـلَّقْتَ بـه هُنْتَ علـيـــــــه

ليس يَصــفـو ودُّ مَنْ واخَـيْـتَـــهُ

إن تَعـــــــرَّضْتَ لشيءٍ في يديـه

يا بُنَيّ، عليكَ بالصِّدق، فإنَّه زين في الدُّنيا، ونجاةٌ في الآخرة، وصدق يعطب صاحبه خير من كذب ينجو به كاذبُه، وقد قال الشَّاعر:

إنَّ خـــيــرَ المقـــالِ مـــا وافقَ الحقْ

وإن قُطَّ فـــيــــه حـــبلُ الوريدِ

ولَقَـطُّ الوَريدِ في الحقِّ خَـــيْـــرٌ

مِن دراكِ المُنى على التَّـــفنيـــدِ

وجانب الكذب فإنَّه شينٌ في الدُّنيا، ووبالٌ في الآخرة، والكذوبُ يرد صدقه، كما يردُ كذبه، وعليك بالسَّخاء، واكتساب الحمد، والمُداراة عن العِرض، وخذ بقول زهير:

ومَن يجعلِ المعروفَ مِن دونِ عِرْضِـه

يَفِـرْهُ ومَن لا يَتَّقِ الشَّـتْمَ يُشْتَمِ

واعلم يا بُنَيّ إنَّ برَّ الوالدين حيّين الطَّاعة لُهما، وبرّهما ميّتين التَّرحُّم عليهما، والكفّ عن أعراض النَّاس صيانة لأعراضهما. قال الشَّاعر:

وما عقَّ مَولودٌ من النَّاسِ والداً
عقُوقَ الّذي يجني لوالده شتْما

يا بُنَيّ، لا تستخفَّ بحقوق الرِّجال، فيستخفّوا بحقّكَ، واقبل منهم الجميل وكافيء عليه، فإنَّكَ إذا فعلت ذلكَ دام لك حمدُهم، وصفا لك وُدُّهم، وخذ بقول الشَّاعر:

خُذِ العفْوَ واصفَح عَن أُمورٍ كثيرةٍ
ودَع كَدَرَ الأخلاقِ واعمد لما صفَا

يابُنيَّ، إذا أحببتَ فلا تُفرِط، وإذا أبغضتَ فلا تَشْطُط، وقد قال الشَّاعر:

وأحببْ إذا أحببتَ حبًّا مُقارباً
فإنَّكَ لا تدري متَى أنتَ قاطعُ
وأبْغِضْ إذا أبغضتَ بُغْضاً مُقاربًا
فإنَّكَ لا تدرِي متَى أنتَ راجعُ

يابُنيَّ، وإن سمعتَ كلمة حاسد، فَكن كأنّك غير شاهد، قال الشّاعر:

أعرضْ عن العَوراءِ إن أُسمعتَها
واقْعُدْ كأنَّكَ غافلٌ لا تسمَعُ

ودَعِ السُّؤالَ عن الأمور وبَحْثِها
فَلَرُبَّ حافِرُ حُفْرةٍ هو يُصرَعُ

يابُنيَّ، إذا نازعتكَ نفسُك إلى أمر هو لكَ شائق، فَخَوِّفها المقْتَ[1]، وعاتبْها على ما به طالبَتْكَ، فإنْ لم ينفعها كتابُك، فكيف ينفعها كتابُ غيرك؟ وفي ذلك قيل:

وليسَ عتابُ النَّاسِ للمرءِ نافعًا
إذا لم يكن للمرءِ لُبٌّ يُعاتبُهْ

يا بُنيَّ، إيّاكَ والبُخل فإنَّه لؤم، وصاحبه مذموم، وإيّاك والمطل فإنَّه أَجْلَبُ للذَّمِّ من البُخْلِ. قال الشّاعر:

إذا اجتمع الآفاتُ فالبُخلُ شرُّها
وشرٌّ مِنَ البُخْلِ المواعيد والمطلُ

---

(١) المقتُ: أشدُّ البَغش.

فـلا خـيـرَ في وعـدٍ إذا كـانَ كـاذبًا

ولا خـيـرَ في قـولٍ إذا لم يكنْ فِـعْلُ

يا بُنيَّ، لاتنقل نميمة، فتكسب بها شتيمة، مع أن من عُرِفَ بها تحفَّظ عن مجالسته، وازهد في مواصلته، قال الشَّاعر:

إنَّ الكريمَ الَّذي تبـقى مَـودَّتُه

ويحفظ السِّرَّ إن صافى وإنْ صَـرما

ليسَ الكريمُ الَّذي إن زلَّ صاحبُـهُ

بثَّ الَّذي كـان من أسـرارِه عَلِما

يا بُنيَّ، لا تُعبْ أحدًا بما يبدو لكَ من عيوبه، فإذا هممتَ بذلك فاذكر عُيوبَ نفسك، فإنَّك ترى ما يشغلك عن عيوب النَّاس، فإن عبتَ أحدًا بما فيه، كان ذلك قبيحًا، وأقبح منه أن تعيبه بما فيك، وفي ذلك قال الشَّاعر:

إذا ما ذكرتَ النَّاسَ فاتركْ عُيوبَهم

فـلا عيبَ إلاَّ دون ما منكَ يُذكَـرُ

فإن عبتَ قومًا بالذي هو فيهمُ

فذلكَ عندَ اللهِ والنَّاسُ مُنكَرُ

وإنْ عِبْتَ قومًا بالذي فيكَ مثلهُ

فكيف يعيب العورَ من هو أعورُ

يا بُنيَّ، إيَّاكَ وقرين السُّوء، فإنَّما صلاحُ أخلاق المرء بمقارنةِ الكرام، وفسادها بمحادثة اللّئام، وإنَّما يُعرَفُ المرء بقرينه وخدينه، قال الشَّاعر:

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ

فَكُلُّ قرينٍ بالمُقارنِ مُقْتَدِ

يا بُنيَّ، إياكَ وكثرة الكلام، والمزاح، والضَّحك، فإنَّ مع كثرة الكلام الزَّلل، والمزاح يورث البغضاء، وكثرة الضَّحك يذهب البهاء، فأقْلِلْ من الكلام، وأفشِ السَّلام، وليكن ضحككَ تَبسُّمًا، ولا تُمازح شريفًا فيحقد عليك، ولا وضيعًا فيجترئ عليك، قال الشَّاعر:

وإيَّاكَ إيَّاكَ المُزاحَ فإنَّهُ

يُجري عليكَ الطِّفلَ والرَّجُلَ النَّذْلا

ويذهب ماء الوجه بعد بهائه

ويورث بعد العز صاحبه ذلا

والزم الصمت، وليكن كلامك بتقدير، وصمتك في تفكير، وحصل القول، وترسل فيه، ومن أكثر أهجر[1]، قال الشاعر:

وأقلل إذا ما قلت قولاً فإنه

إذا قل قول المرء قل خطاؤه

يا بني، لا تمازح حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك[2]، والسفيه يؤذيك. واعلم أن المراء يمرض قلبك، ويضعف رأيك. ويزري بمروءتك عند جلسائك، ويفسد الصداقة القديمة، وفي ذلك يقول الشاعر:

فإياك إياك المراء فإنه

إلى الشر دعاء وللشر جالب

واعلم يا بني أن من الكلام ما هو أحر من الجمر، وأمر من الصبر، وقد قال الشاعر:

---

(١) أهجر: أتى بالقبيح من الكلام.

(٢) يقليك: يبغضك.

النَّارُ أبلغُ أوجاعٍ سمعتُ بها

والقولُ أبلغُ مِن كيِّ المسامير

يا بُنيَّ، إنَّ لكلِّ مقامٍ مقالا، ولكلِّ كلامٍ جوابًا، وكلُّ كلام منكر إلاَّ وجوابُه أنكر، وقد قال الشَّاعر:

ما أحَرَّ الكلامَ يرحمك اللـ....

ـهُ ولكن أحرُّ منهُ الجَوابُ

يا بُنيَّ: لا تغترَّ بالمال، فإنَّه كالمسافر يحلُّ ويرحل. واعلم أنَّ العقل مقيم لا يبرح، ومَثَل من له مال ولا عقل له، كرجل له نَعل ولا رجْلَ له، ومَثَل مَن له عقلٌ ولا مالَ له كَرَجُلٍ له رِجلٌ ولا نَعْلَ له، فإن أتاهُ اللّه بالنَّعل فالرِّجْلُ مُهيَّأة له، وإن أتى بنعل مَن لا رجل له فإنَّما هي أعجوبة في النَّاس. قال الشَّاعر:

إذا كنتَ ذا عقْلٍ ولم تَكُ ذا غِنىً

فأنتَ كذي رجلٍ وليسَ له نَعْلُ

وإن كنتَ ذا مالٍ ولم تَكُ عاقلاً

فأنتَ كذي نَعْلٍ وليسَ به رِجْلُ

يا بُنيَّ، إذا أتيتَ بلداً أهلهاعلى غير ما تعرف، فاترك كثيراً ممّا كنتَ تعرف، وخُذ بما يعرفون، فإنَّ ذلك من حُسن المداراة، وكثيرٌ من دارى فلم يَسلم، فكيف بِمَن لم يدارِ؟ قال الشّاعر:

يـــاذا الَّـــذي لـــيـــس لَــهُ والـــدٌ

يمــشــي عــلــى الأرضِ ولا والِــدَه

قـــد مـــاتَ من قـــبلهـــمـــا آدمٌ

فـــأي نفسٍ بَعْـــدَهُ خـــالِدَه

إنْ جـــئتَ أرضَـــا أهلُهـــا كُلُّهـم

عـــورٌ فَـغـــمِّض عـــينك الواحـــدة

يا بُنيَّ كن من الحليم على حذر إن أحرجتَهُ، ومن اللَّئيم إن أكرمته، ومن الأحمق إن مازحتَهُ، ومن الفاجر إن عاشرته.

واعلم أنَّ من النَّاس مَن يقول ويفعل، ومنهم من يقول ولا يفعل، ومنهم من لا يفعل ولا يقول، وهو خير منهم، وشرُّهم الَّذي يقول ولا يفعل.

يابُنَيَّ، غُضَّ عن الفكاهات من المضاحك والحكايات، ولا تُحدِّث أحداً إعجابك بولدك وزوجتك، ولا إعجابك بسيفك ولا فرسك، وإيَّاك وأحاديث الرؤيا فإنَّها تطمع فيك السُّفهاء، فَيُولِّدوا لك الأحلام، ويفسدوا في عقلك، ولا تلبس من الثِّياب مشهوراً، ولا تتَّخذ من الدَّواب مبطوراً، ولا تتصنَّع تَصنُّعَ المرأة، ولا تتبذَّل تَبذُّل العبد، وتوقَّ الكُحل، والإسراف في الدّهن، ولا تُلحَّ في الحاجات، ولا تخضع في الطَّلبات، وإيّاكَ أن تُعلم أهلك وولدك كثرة مالك أو قلَّته، فإنَّهم إن علموا قلَّته هنتَ عليهم، وإن علموا كثرته لم تبلغ به رضاهم.

يا بُنَيَّ: أخِفْ أهلكَ وولَدك في غير عنف، وارفق بهم في غير ضعف ولا تُرِ زوجتك حُبَّ الإفراط فتتجبَّر عليك، ولا تُرِها بغضًا فتنفر منك، وأحبب ولدك وأحسن أدبَه، ولا تُهازل أَمتك ولا عبدَك.

يا بُنيَّ، إذا خاصمتَ فدَعِ الحِدَّة، وفكِّر في الحجّة، واصبر لمن خَصَمك، ولا تغضب فتذهل عن حجّتك، وأرِ الحاكم بينكما حِلْمَكَ، ولا تُكثر الإشارة بيدك. وإن قرّبك

السُّلطان فكن منه على حدِّ السِّنان، وإنْ أمِنَ إليك فلا تأمن انقلابَه عليك، وارفق به رفقكَ بالصَّبيِّ، وكَلِّمهُ بما يشتهي. وإيّاك أن تدخل بينه وبين أحد من ولده وحَشمه وغلمانه. وإن كان لقولك فيهم مطيعًا فإنَّ أهل الملوك أصحاب خلوتهم، وبطانتهم يحضرون لك في موضع يشربونه الوقيعة فيك، ويولدون في صدره ما يغيّره عليك، وإنَّ الدُّخول بين السُّلطان وأهله زلّة لا تُقال.

يا بُنَيَّ، إذا ركبتَ فلا تُكثر من ضرب دابّتك، ولا تخفق بقدميك في ركابك، وإذا سايرتَ موكبًا فكُن في وسطه، ولا تكن أمام القوم فتثير الغبار عليهم، ولا خلفهم فيثيروا الغبار عليك.

يا بُنَيَّ، لا تفرش عرضك لمن هو دونك، ولا تنفض عهداً فتحمل بذلك حقداً، وأقللِ الكلام على الطّعام إلاَّ بالحمد لله، وكذلك عند الخلاء.

يا بُنَيَّ، اتّقِ اللّهَ يكفكَ ما تخافه وتتّقيه، واحذر أن تعصيه، فإنّه ليس لك من ورائه وَزَر[1]، ولا من دونه معتصم،

---

(١) الوَزَرُ: الملجأ.

وإيّاك والفجور بحُرَم النَّاس، فإنَّه ما انتهك امرؤٌ حُرمةَ إلاّ ابتُلي في حُرَمِهِ بمثله. وإيّاك والخمر فإنّها مُتلفة، طَلاَّبة لما لا ينال، وفيها مفسدة للعقل، وسقوط الهيبة والبهاء، وإيّاك والاختلاف، فإنَّه ليس معه ائتلاف، ولا يكن لك جار السُّوء جاراً، ولا خدين السُّوء زوراً.

# فصل

كتب ملك الرُّوم إلى سابور بن أزدشير: أما بعد، فقد بلغني من سياستك لجندك، وضبطكَ ما تحت يدك، وسلامة أهل مملكتك بتدبيرك ما أحببتُ أن أسلك فيه طريقتك، وأركب منهجك.

فكتب إليه سابور: نلتُ ذلك بثمان خصال: لم أهزل في أمر ولا نهي قَطّ، ولم أُخلف وعداً ولا وعيداً، وجازيت للغنى لا للهوى، واجتلبتُ قلوب النَّاس مِقةً[1] بلا مَقْت، وخوفًا بلا جُرأة، وعاقبتُ للذَّنب لا للغضب، وعممتُ بالقلوب، وحسمتُ الفضول.

وكتب هرمز بن سابور إلى بعض عمّاله: إنّه لا يصلح لسَدِّ الثَّغور، وقَوْدِ الجيش، وإبرام الأمور، وتدبير الأقاليم إلاَّ رجلٌ تكاملت فيه خمس خصال: فَهْمٌ يتيقَّن به عند موارد

(١) المِقَةُ: المحبّة. والمقت: البغض الشديد.

الأمور. حقائق مصادرها، وعِلْمٌ يحجبه عن التّهوّر في المشكلات إلاّ عند تَجَلّي فُرَصها، وشجاعَةٌ لا تنقضها الملمّات بتواتر حوائجها، وصِدْقُ الوعد والوعيد ليوثَقَ بوفائه بهما، وَجُودٌ يهونُ عليه تبذير الأموال في حَقِّها.

كتب حكيمٌ إلى حكيم: أما بعد: فإنّي سائلك عن ثلاثة، إن أجبتَ عنها تلمذتُ لك، فكتب إليه: سل وباللّه التوفيق، فكتب إليه: أيّ النّاس أولى بالرّحمة؟ ومتى تضيع أمور النّاس؟ وبِمَ تتلقّى النّعمة من اللّه عزّ وجَلّ؟

فأجابه: أولى النّاس بالرّحمة الرّجلُ البرُّ يكون في بلد الأمير الجائر، فهو خائف حزين لما يرى ويسمع، والعاقل في تدبير الجاهل، فهو الدّهرَ مُتعبٌ مغموم، والكريم يحتاج إلى اللّئيم فهو الدّهرَ خاضع ذليل، وتضيع أمور النّاس إذا كان الرّأيُ عند من لا يُقبل منه، والسّلاحُ عندَ من لا يستعمله، والمالُ عندَ من لا ينفقه.

وتتلقّى النِّعمة من اللّه تعالى بكثرة شُكره، ولزوم طاعته، واجتناب معصيته، فأقبلَ عليه ذلك الحكيم فتتلمذ له حتّى مات.

وكتب أيضًا حكيم إلى حكيم يشكو إليه دهره، فأجابه:

أمّا بعد، فإنَّه ليس من أحد أنصفه زمانه، فتصرّفت به الحال حسب استحقاقه، وإنَّك لن ترى من النَّاس إلاَّ أحد رجلين: إمّا متقدّم أخّره حَظُّه، أو متأخّر قَدّمه حَظُّه، فارضَ بالحالِ التي أنتَ عليها. وإن كانت دونَ أملكَ، فإن رضيت بحالك اختياراً، وإلاّ رضيت بها اضطراراً. وفي مثل ذلك قال الشّاعر:

لقد غرَّتِ الدُّنيا رجالاً فأصبحوا

بمنزلةٍ ما بَعدها مُتَحَولٌ

فَساخِطُ عيشٍ لا يبدّلُ غيرَهُ

وراضٍ بعيشٍ غيرَهُ سَيبدّلُ

وبالغُ أمرٍ كانَ يأملُ دونَهُ

ومُختلجٌ مِن دونِ ما كان يأمَلُ

وكتب ملك هجر إلى بعض الحكماء، أن اكتب لي بأشياء أنتفعُ بها، وأوجز. فكتب إليه: أوفقُ الأمور تركُ الفُضولَ، والتحفُّظ من السُّقوط، ولزوم الصَّواب. وأصلُ

المعيشة إصلاح المال بالتَّقدير، فإنَّ التَّبذير مفتاح الفقر، ومن العجز والتَّواني تنبعث الهلكة، وأحوج النَّاس إلى الغنى مَن لم يصلحه إلاَّ الغنى. وفي المشورة والعدل صلاح الرَّعيَّة، ورضى النَّاس غايةٌ لا تُدرك، والبرُّ أجمعه في حُسن الخُلق، والنُّجح مع الصَّبر، والنَّجاة مع الإيمان، والعفو يوجب المحبَّة، والحلم قائد القلوب، والرِّفق بالرَّعيَّة يوجب الطَّاعة، والفتنة تُنشئها الضَّغائن، والنِّعمة تُستدام بلزوم الشُّكر مع اطّراح الهوى والمعاصي.

وقيل: إنَّ زبيدة زوجة هارون الرَّشيد كتبت إلى منصور ابن عمّار: أما بعد، فكيف يقف ذو اللُّبّ على ما ينفعه؟ وكيف يجتنب ما يضرّه؟ فكتب إليها:

أما بعد: فمن أبصر عيب نفسه شُغِل عن عيب غيره، ومن تعرّى عن لباس التَّقوى لم يستتر مِن اللّباس، ومن رضي برزق اللّه تعالى لم يحزن على ما في يدي غيره، ومن سَلَّ سيف البغي قُتِلَ به، ومن احتفر بئرًا لأخيه وقع فيه، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسي زلَّته استعظم زلَّة غيره، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم اللّجج غرق، ومَن أُعجِبَ برأيه ضَلَّ، ومن استغنى بعقله زلَّ، ومن تكبَّر

على النَّاسِ ذلَّ، ومن فجر عليهم قُصم، ومن سفه عليهم شُتم، ومن خالط الأرذال حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السُّوء اتُّهِم، ومَن تهاون بالدِّين ارتطم، ومن اغتنم أموال النَّاس افتقر، ومن انتظر العاقبة اصطبر، ومن خشي اللّه فاز، ومن لم يُجرِّب الأمور قُتل، ومن صارع دهر الحقّ صُرع، ومن احتمل ما لا يطيق عجز، ومن كثر لغطه كثر سَقَطُهُ (1)، ومن عرف أجله قصر أمله، ومن استفاد الجهل فقد ترك طريق العدل.

فكتبت إليه: أمّا بعد: فإنَّا قد وقفنا على عيوب النَّفس، فكيف لا نقف على عيوب الدُّنيا؟

فكتب إليها: أما بعد: فإنَّ الدُّنيا مَن طَلَبها طلبتهُ، ومن داهنها كلمته، ومَن صادقها قتلته، ومن اطمأنَّ إليها خذلته، ومن رفضها رفضته، ومن تركها ولم يخدمها خدمته، استحسنَهَا مَن جَهِلَها، واستنكرها من عرفها. نجا النَّاجون عند إدبارها، وهلك الهالكون عند إقبالها، فالعاقل يجعل الزُّهد حسامه، والحقَّ سهامه، والورعَ قوسَهُ، والنَّصيحةَ دِرْعَهُ،

---

(1) السَّقط: الغلط في الكلام.

والقُنوعَ رُمْحَهُ، وكتابَ اللّه - عزَّ وجلَّ - حماه، والرّفقَ مركَبَهُ، والعمل عُدَّته، والآمالَ بأسَهُ، والنيَّة جُنَّتَهُ، والصَّمْتَ تُرْسَهُ، والتَّقوى طليعته، وخشية اللّه تعالى حصنه، والسَّلام.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدَّرداء: أمّا بعد: فإنَّك لن تنال ما تريد إلاّ بتركِكَ ما تشتهي، ولن تدرك ما تأملُ إلاّ الصَّبر على ما تكره، فليكن كلامُكَ ذكرًا، وصَمْتُكَ فكرًا، ونَظَرُكَ عِبْرَةً، فإنَّ الدُّنيا تنقلبُ، وبهجتُها تتغيّر، فلا تغترَّ بها، وليكن بيتُكَ المسجد الحرام، والسَّلام.

فأجابه أبو الدَّرداء: أما بعد: فإنّي أوصيك بتقوى اللّه، وأن تأخذ من صِحتك لسَقمك، ومن شَبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، واذكر حياةً لا موت فيها في إحدى المنزلتين، إمّا في الجنَّة وإمّا في النَّار، فإنَّكَ لا تدري إلى أيّهما تصير، والسَّلام.

وكتب بعض الزُّهّاد إلى أحمد بن حنبل:

أمّا بعد: فمن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته، ومن أصلح دنياه، أصلح اللّه آخرته، ومن أصلح ما بينه وبين

اللّه، أصلح اللّه ما بينه وبين النَّاس، ومن تزيّا للنَّاس بما ليس في نفسه أساء اللّه بهم ظنَّهم، ومن أخاف اللّه، خافه كلُّ شيء، ومن خاف غير اللّه، وكَّله اللّه إلى نفسه وإليهم، ولن يغنوا عنه من اللّه شيئًا، فالهربَ الهرب، والنَّجاءَ النَّجاءَ، وإيّاكَ أن تقنع بما نوّه باسمك في الخلق، فإنَّك لن تنجو من اللّه إلاَّ بأداء فرائضه، ولا تَقَرُّب ولا تَحبُّب إليه بمثل النُّصح، فعليك بالنُّصح له، وقُلِ الحقَّ، فإنَّ الحقَّ قديم، ولا تَدع أن تصلني منك موعظة يُجلى بها قلبي، ويقشعرُّ منها جلدي، وتذرف بها عيناي، فلستُ بمستغنٍ عن علمك ورأيكَ، فختم اللّه لنا ولك بخير وما ترك عبد شيئًا من مخافة اللّه إلاَّ عوَّضه اللّه خيراً منه، وفي اللّه خلف من كلّ هالك، وعوَض من كلّ فائت، وأُنس من كُلّ وُحشة، وغنىً من كلّ عدم، وعزاء من كلّ مصيبة، فباللّه نثق، وعليه نتوكَّل، ولا حول ولا قوّة إلاَّ باللّه العلي العظيم.

# فصل

كـــتب علـيُّ بن أبي طالب - رضي اللّه عنه- إلى ولده الحُسين: من عبد اللّه عليّ، أمير المؤمنين، الوالد الفاني، المُقرّ للزَّمـان، المستسلم للحدثان، المُدْبِر العمر، الذَّام للدنُّيا، السَّاكن مساكن الموتى، إلى الولد المؤمِّل ما لا يُدركَ، السَّالك سبيل مَن قد هلك، عُرضة الأسقام، ورهينة الأيّام، وعبد الدنُّيا، وتاجر الغُرور، وأسير المنايا، وقرين الرَّزايا، وصريع الشَّهوات، ونصيب الافات، وخليفةِ الأموات.

أمّا بعد: يا بُنَيّ، فإنَّ فيما تفكّرتُ فيه من إدبار الدنُّيا عنّي، وإقبال الآخرة إليّ، وصَنْو الدَّهر على ما يزعجني عن ذكر مَن سواي، والاهتمام بما ورائي، غير أنَّه حيث تفرَّد بي هَمُّ نفسي دون هَمِّ النَّاس، وصدقني هواي، صرَّح بي محضُ رأيي، فأمضى بي إلى جدّ لا يُزري به لعب، وصدق لا يشوبه كذب، وجدتُك يا بُنَيَّ من بعضي، بل وجدتُكَ من كُلّي،

حتى كأنَّ شيئًا لو أصابك أصابني ، وحتّى كأنَّ الموت لو أتاكَ أتاني ، عنَاك من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، كتبتُ إليكَ كتابي هذا .

يا بُنَيَّ ، إن بقيتُ أو فنيتُ ، فإنّي أوصيك بتقوى اللّه -عزَّ وجَلَّ- وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، فإنَّ اللّهَ يقول : **﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعًا ولا تفرَّقوا ، واذكروا نعمةَ اللّه عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قُلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا﴾** (آل عمران : ١٠٣) ، وأيّ سبب يا بُنيَّ أوثق من سبب بينك وبين اللّه عزَّ وجَلَّ-أَحْيِ قَلبَك بالموعظة ، ونَوِّرْهُ بالحكمة ، وقَوِّه بالزُّهد ، وذَلِّلْهُ بالموت ، وقَرِّرْهُ بالفناء ، وحَذِّرْهُ صولةَ الدَّهر ، وتَقَلُّبَ اللّيالي واعرض عليه أخبار الماضين ، وسِرْ في ديارهم ، وآثارهم ، فانظر ما فعلوا ، وأينَ حَلُّوا؟ فإنَّك تجدهم قد انتقلوا من دار الغُرور ، ونزلوا دار الغُربة ، وكأنَّك عن قليل يابُنَيّ قد صرتَ كأحدهم ، فَبِعْ دُنياك بآخرتك ، ولا تَبع اخرتك بدُنياك ، ودَعِ القول فيما لا تعرف ، والأمر فيما لاتكلف ، ومُر بالمعروف بيدك ولسانك ، وكُن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباينْ منَ فَعله ، وخُضِ

الغَمـرات إلى الحقّ، ولا تأخذك في الله لومة لائم، واحفظ وَصيّتي، ولا تذهب عنك صفحًا، فلا خير في علم لا ينفع.

واعلـم أنّه لا غِنىً بك عن حُسنِ الارتيـاد، مع بلاغك الزّاد، فإن أصبتَ من أهل الفاقة من يحتمل عنك زادكَ، فيوافيكَ به في معادك، فاغتنمه، فإنّ أمامكَ عقبةً كؤودًا، لا يجاوزها إلاّ أخفُّ النّاس حملاً. وأجْمِلْ في الطّلب، وأحْسِن في المكتَسَب، فَرُبَّ طلب قد جرّ إلى حرب، وإنّما المحروب[1] من حُرِبَ دينه، والمسلوبُ مَن سُلِبَ يَقينُهُ. واعلم أنّه لا غنىً يعدل الجنّة، ولا فقر يعدل النّار، والسّلام عليك ورحمة الله.

وقال رضي الله عنه:

صُنِ النَّفْسَ واحملْها على ما يَزينُها

تَعِشْ سالمًا والقَولُ فيكَ جَميلُ

ولا تُرِيَنَّ النّاسَ إلاّ تجمُّلاً

نَبا بِكَ دَهْرٌ أو جَفاكَ خَليلُ

فإنْ ضاقَ رزقُ اليوم فاصبرْ إلى غَدٍ

لَعَلَّ صروفَ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزولُ

ولا خـيـرَ في وُدِّ امـريءٍ مُتَلَوِّنٍ

إذا الرِّيحُ مـالَتْ مـالَ حـيثُ تَمـيلُ

جَوادٌ إذا استَغْـنَـيْتَ عَـنـهُ بمـالِـهِ

وعندَ احتْـمـالِ النَّائبـاتِ بَخـيلُ

فَمـا أكـثـرَ الإخـوانَ حين تَعـدُّهم

ولـكـنَّهـمْ في الـنَّائبـاتِ قَلـيلُ

قال كُميل بن زياد: أخذ عليٌّ - رضي الله عنه - بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجَبَّانة، فلمّا أصْحَرَ تنفَّس الصُّعداء، ثم قال: يا كُمَيل، إنَّ هذه القُلوب أوعيةٌ، فخيرها أوعاها، يا كُميل، احفظ عنّي ما أقول: النَّاس ثلاثة: عالم ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهَمَج رعاع، لِكُلِّ ناعقٍ أتباع، يميلون مع كُلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولن يلجؤوا إلى كُلِّ وثيق، يا كُمَيل: العلم خير من المال، العلم يحرُسك، وأنتَ تحرسُ المال، والمالُ تُنقِصه النَّفَقة، والعلم يزكو على الإنفاق، يا كُميل، محبّة العلم دينٌ يُدانُ به، يكسبه العلمُ الطَّاعةَ في حياته، وجميل الأحدوثة بعدوفاته، ومنفعة المال

تزول بزواله. والعِلْمُ حاكم، والمالُ محكومٌ عليه، يا كُميل، مات خزّانُ المال، والعلماء باقون ما بقي الدّهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، ثم قال: ها إنَّ هاهُنا علمًا، وأشار إلى صدره، لو أصبتُ له حَمَلَةً، بلى أصيبه لفتىً غير مأمون يستعمل آيةَ الدِّين في طَلَب الدُّنيا، ويستظهر بحُجج الله على أوليائه، وبنِعَم الله على معاصيه، أو منُقادًا لحملة العلم لا بصيرة له في أنحائه، يقدح الشكُّ في قلبه بأوَّل ناعق من شبُهَةٍ، ألا لاذا ولا ذاك، أفَمن هو منهومٌ باللَّذات، سَلِسُ القياد إلى الشّهوات، ومُغرَمٌ بالجمع والادّخار، وليس من دُعاة الدِّين أقربَ شبهًا به الأنعام، كذلك يموت العِلم بموت حامليه، ثم قال: اللَّهمَّ بلى لا تخلو الأرض من قائمٍ بحجّة، إمّا ظاهرًا منشورًا، وإمّا خافيًا مغمورًا، لئلا تبطل حجج الله وميثاقه، وكم وأين أولئك الأقلُّون عددًا، والأعظمون قدرًا، بهم يحفظ الله حُجَجه حتّى يودعها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقائق الأمور، فباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استوعر المترفون، وأنِسوا بما استوحش منهُ الجاهلون، صحبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحها معلّقة بالمحلِّ

الأعلى. يا كُمَيل، أولئكَ خلفاء الله في أرضه، والدُّعاة إلى دينه، هاه هاه، شوقًا إليهم، وإلى رؤيتهم، وأستغفر الله لنا ولهم. انصرف إذا شئتَ.

وإذ قد تضمّنت هذه الوصيّة ذكر العلم، وتعليمه، وحملته، فلنذكر العلومَ الضرورية على الإنسان، وما يلزم تبديته وتقديمه منها في تعلّمه لها، وأجعل ذلك خاتمة كتابي هذا تيمّنًا وتبرُّكًا بذكرها، وتحريضًا على تعلُّمها ونَشرها لتعظم بها الفائدة، وتكمل فيها العائدة.

# فصل

قال الإمام أبو نُعَيم أحمد بن عبد اللّه بن إسحاق الحافظ، رحمة اللّه عليه: اعلم أنَّ أحقَّ ما يلزم المرء تبديته وتقديمه تَعلُّم القرآن، فإنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿**إنَّ هذا القرآن يهدي للَّتي هي أقومُ وبَشِّر المؤمنين**﴾. الآية (الإسراء: ٩)، وقال: ﴿**لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميد**﴾ (فصلت: ٤٢) وقال: ﴿**ونَزَّلنا عليكَ الكتاب تبيانًا لكلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً وبُشرى للمسلمين**﴾ (النحل: ٨٩) في كثير من الآياتِ يكثر تعدادها، ففيه، والحمد للّه، الهدى السَّاطع، والنُّور اللامع، وشفاء الصُّدور، ومراهم القلوب، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره، وبحر لا يدرك غوره، المانع من الهلكة والبوار، والدَّال على سبيل الجنَّة والنَّار. من رُزِقَ علمه استغنى به عن كُلِّ علم، ومن علّمه وتعلّمه تعلّم خير العلوم وأفضلها، وهو أقرب ما يتقرَّب به العباد إلى ربّهم عزَّ وجلَّ.

عن الحارث الأعور، عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قيل لرسول الله - ﷺ - : إنّ أُمّتك ستُفتَنُ من بعدك، فسأل رسول الله، أو سُئِلَ ما المخرج منها؟ قال: «كتاب اللّه الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. مَن ابتغى العلم في غيره أضلّه اللّه، ومَن ولي هذا الأمر من جبّار فَحكم بغيره قصمه اللّه، هو الذّكر الحكيم، والنُّور المُبين، والصِّراط المستقيم، فيه خبر ما قبلكم، ونَبأ ما بعدكم، وحَكَمُ ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، وهو الّذي سمعته الجنُّ فلم تتناهَ أن قالوا: ﴿إنَّا سمعنا قرآنًا عَجَبًا يهدي إلى الرُّشد فآمنّا به﴾ (الجن: ١)، لا يخلق على طول الرَّدِّ، ولا تنقضي عبِرَه، ولا تفنى عجائبه».

ثمّ قال للحارث: خذها يا أعور، فمن تعلّمه فليصبرْ على ما يعرض له دون تعلّمه، ولا يكن هَمُّه في تَعلُّمه إقامة حروفه، دون القيام عند حدوده، وليحذر من أن يتكبَّر فيه أو يأكل به، ولا يترك قراءتَه ودَرْسَهَ ليبقى له حفْظُهُ، ولا يغفل عن القيام به في اللَّيالي، ويستعين على تَحفُّظ

القرآن بقراءته دوراً مع الأصحاب والرُّفقاء، ثمَّ ليبحث عن علومهِ ومعانيه، وليحذرِ الكلام فيه بغير علم، وليحذر أن يتوانى فيه وينساه.

عن سعد بن عُبادة - رضي اللّه عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ : «ما من رجل يتعلّم القرآن ثمّ ينساه إلاّ لقي اللّه يوم القيامة أجذم».

ثمَّ الّذي يتلو القرآن من العلوم سنن الرَّسول - ﷺ - فإنَّها الحكمة. قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم: ٣) وقال: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر: ٧)، فمن أراد حفظ الأحاديث الّتي في الأصول الصِّحاح فليكن في طلبه للحديث محتسبًا، صادق النِّيَّة، فإنَّ أهل الحديث خلفاء رسول اللّه - ﷺ - في أمّته بعده.

عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: سمعت عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول: خرج علينا رسول الله-ﷺ- فقال: «اللّهمَ ارحم خلفائي» قلنا: يا رسول الله، ومَن خلفاؤك؟» قال: «الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي، ويعلّمونها للنَّاس».

فإذا أحرز صدراً من علم سنن الرسول - ﷺ - فليأخذ في علم الفرائض، فإنه ثالث علوم الدِّين، وعليه المُعَوَّل في قسمه المواريث بين المسلمين، والمختار من علم الفرائض مذهب زيد بن ثابت الأنصاري.

عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول اللّه - ﷺ - : «العِلم ثلاثة، فما سوى ذلك فضل، آية محكمة، وسُنَّةٌ قائمة، وفريضة عادلة».

فإذا أحكم علم الفرائض، فليأخذ في الفقه، فإنَّه علم الحلال والحرام، وهو عصمة في الدِّين، وزينة في الدُّنيا، وبحسبَ الفقيه من المدحة قوله تعالى: ﴿**فلولا نَفَر من كُلِّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقَّهوا في الدِّين**﴾ (التوبة: ٩) والّذي يُستَحَبُّ للمتعلّم من مذاهب الفقهاء مذاهب أهل المدينة والحجاز.

عن معاوية بن أبي سفيان، عن رسول اللّه -ﷺ- أنَّه قال: «الخيرُ عادةٌ، والشَّرُّ لجَاجَةٌ، ومن يُرِد اللّهُ به خيراً يفقّهه في الدِّين»

ثمّ يتلو الفقهَ من العلوم، علم العربيّة والنَّحو، لأنَّه آلةٌ لجميع العلوم، لا يجد أحدٌ منه بُدٌّ ليُقيم به تلاوةَ كتاب اللّه، ورواية كلام رسول اللّه - ﷺ - لكيلا يخرجه جهل الإعراب إلى إسقاط المعاني.

عن عمر - رضي اللّه عنه- قال: سمعت رسول اللّه -ﷺ- يقول: «رحم اللّه امرأً أصلح من لسانه».

وليأخذ بحظٍّ من علم الغريب، ومعرفة اختلاف اللّغات، ففيه إذراب [1] اللِّسان، وفصاحة المنطق، ومعرفة المُشكل، وبيان الغامض.

ثمّ ليعرف طرفًا من الشّعر، فإنَّه ديوان العرب، وموروث في الأعقاب والأخلاف، باقٍ مدحه وذمُّه، لازمٌ خيره وشرُّه، وفيه الشّاهد الحاضر، والمَثَل السّائر، والذّم والامتداح، والشَّرح والإفصاح، وبيان غريب القرآن، ومعاني سنن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام.

---

(١) إذراب اللسان: إفصاحه.

عن عائشة - رضي اللّه عنها - قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إنَّ من الشِّعر لحكمة».

ثمّ ليتعلّم طرفًا من الأنساب، لما في علمه من اتّصال الإنسان، ومعرفة الأسلاف، وفضائل الأشراف، وبه تواصل الأرحام، ويتوارث بنو الأعمام.

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه، ﷺ: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإنَّ صلة الرَّحم محبَّة في الأهل، مثراة في المال، منسأةٌ في الأثر».

ثم يتلو ما ذكرنا من معرفة علم الأنساب علم الطِّبِّ، فإنَّه علم الأبدان، وجوامع الطِّبِّ حفظ الصِّحَّة، وتدبير الأمراض، وشفاء الأسقام، قد نطق به القرآن، ودلَّت عليه السُّنَّة، وافتقر إلى أهله جميع الأمَّة.

عن أبي سعيد الخدريّ، عن النَّبيّ - ﷺ- قال: «ما أنزل اللّهُ من داء، إلاّ وأنزل معه دواء، علِمَهُ من علِمَهُ، وجَهِلَهُ من جَهِلَهُ».

ثمّ يتلو الطّبَّ، الخَطُّ والكتابةُ، فإنَّه سفير العقل، وبه كمالُ الفضل، ورباط علوم الدِّين والدُّنيا، وبه تُحفظُ الآثار، وتنفسحُ الأبصار.

عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «قيِّدوا العلم بالكتابة».

ثمّ ليتعلّمْ عبارة الرُّؤيا، فإنَّه علم نبويّ، وبُشرى علويّ.

عن عبادة بن الصَّامت، عن النَّبيّ -ﷺ- قال: «رؤيا المسلم جزءٌ من ستةٍ وأربعين من النُّبوَّة».

ثمّ ليتعلّم الحساب، فإنّه علمٌ لا غنى عنه، فيه خير الدُّنيا والدِّين، ثابتُ الدّلائل، واضح البراهين، به تُحفَظُ الأموال، وتُقسم المواريث.

عن العرباض بن سارية قال: سمعت رسول اللّه -ﷺ- يقول لمعاوية: «اللَّهمَّ علِّمْهُ الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب».

ثمّ الّذي يتلو الحسابَ الذَّرعُ والمساحَةُ، وهما من نتائج الحساب.

عن أبي سعيد الخدري أنَّ قتيلاً أو ميتًا وجد بين قريتين، فقال رسول الله ﷺ: «قيسوا، فانظروا إلى أيّها أقرب»، فكأنّي أنظر إلى شبر رسول اللّه - ﷺ - فألقاه إلى أقربهما.

فإذا تعلّم ما ذكرنا من العلوم، فلا بأس أن يتعلم من جليل علوم النُّجوم، ومعرفة أعيان الكواكب ما به يُعلم عدد السِّنين والشُّهور، وأوقات الصَّلاة، ومجاري الأهلَّة، وساعات الليل والنهار، والبراري والبحار، قال تعالى: ﴿..وعلاماتٍ وبالنَّجمِ هم يهتدون﴾ (النحل: ١٦). وقال سبحانه وتعالى: ﴿الشَّمسُ والقمرُ بحسبان﴾ (الرحمن: ٥). وقال: ﴿.والقمرَ قدّرناهُ منازلَ حتَّى عادَ كالعُرجونِ القَديمِ﴾ (ياسين: ٣٩) وقال: ﴿كلٌّ في فَلَكٍ يسبحون﴾ (الأنبياء: ٣٣). وقال: ﴿والسَّماء ذات البُروج﴾ (البروج: ١) وقال: ﴿وهو الذي جعلَ الشَّمسَ ضياءً،

والقَمـرَ نـوراً، وقـَدَّرهُ منازلَ لتَعلمـوا عـددَ السـنِّينَ والحِسـابَ﴾ (يونس: ٥).

قال الحكماء: العلم كثير، والعمر قصير، فاطلب منه دُعاك إلى خير، وحملك على برّ.

وقالوا: اقصد من أصناف العلم ما هـو أشـهى إلى نفسـك، وأخفّ على قلبك فإنّ نفاذك فيه على حَسَب شهوتك له، وسهولته عليك.

# فصل

وما ذكرنا قبلُ فهي من أصناف العلوم التي هي من حيّز الدِّين، ونتائج العقول. وأمّا العلوم المكتسبة الّتي هي من محاسن الأفعال، وتُلبِسُ أصحابها ثوب الجمال، وهي أيضًا مُستحسنةٌ في الدُّنيا والدِّين ، فكالرَّمي، والسِّباحة ، والفروسية، والثَّقافة، والعلم في المحاربة.

فأمّا الرَّمي فالتَّشاغل به من التِّجارات المُربحة المُنجحة. ومن المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس»: اعلم أنَّ التَّرغيب في الرِّماية روي عن عقبة بن عامر ، قال: سمعت رسول اللّه ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قُوّة، ألا إنَّ القوَّة الرَّمي». وكان عليه الصَّلاة والسَّلام يعجبه أن يكون الرَّجل راميًا، فارسًا، سابحًا.

وقال عليه الصَّلاة والسَّلام «علّموا أبناءكم الرَّمي، فإنَّه نكاية للعدو».

وقال -عليه الصلاة والسَّلام- لقوم من الأنصار رآهم يرمون: «ارموا يا بني إسماعيل، فقد كان أبوكم راميًا».

وقال - عليه الصلاة والسَّلام- : «مَن رمى بسهم في سبيل الله مُخطئًا أو مصيبًا، كان له الأجر كرقبةٍ أعتقها من ولد إسماعيل».

وعن عليّ بن أبي طالب - رضي اللّه عنه- أنَّه قال: ما سمعت رسولَ اللّه - ﷺ- فَدى أحدًا غير سعد بن أبي وقّاص، فإنَّه قال له يوم أُحد: «ارمِ فداكَ أبي وأمّي». وفي ذلك اليوم قال رسول اللّه- ﷺ- لسعد، ولأبي طلحة، وقتادة، وغيرهم من الرُّماة: «أثبتوا فلن يزال النَّصر معنا ما ثَبتُّم». وكان عدد الرُّماة في ذلك اليوم خمسةَ عشر راميًا.

وقد فَضَّل اللّهُ تعالى القوسَ على كُلٍّ الأسلحة.

عن رسـول اللّـه- ﷺ- أنَّـه قـال: ما مَـدَّ النـَّاس أيديهـم إلى شيءٍ من السِّلاح، إلاَّ وللقوس عليه فضيلة»

وقال - عليه الصَّلاة والسَّلام- : «منُتهى المؤمن القوسُ والنَّبل».

والقِسِيُّ جنسـان: قـوسُ اليـد، وهي العـربيّة، وتنقسم على أنواع. وقـوس الرِّجل، وهي الإفرنجيّة. وتنقسم كـذلك على أربعة أنواع.

فـالقـوس العـربيّة أنسب للفـارس لأنَّهـا أسـرعُ، وأقَلُّ مؤونةً، والقوس الإفرنجيّة أنسـب للرِّجال لأنَّها أبلغ وأكثر معونـة، ولا سيما في الحصار، والمراكب البحريّـة، وشبه ذلك. وهي خاصّـة بـأهل الأندلس، بهـا يصيدون، وعنها يرمـون، وفيـهـا يتنافسـون، وعليـهـا يعتـمـدون فـرسـانًا ورجـالاً.

وأما السِّباحة فهي من الخصال المحمودة. نَقَل الإمام أبو نُعَيم بسنده إلى أبي رافع، قـال: رسـول اللّه- ﷺ- : «حَقُّ الولَد على الوالد أن يُعلّمه كتاب اللّه والسِّباحة والرَّمي».

وقال رسول اللّه- ﷺ- : «نِعْمَ لَهْوُ المؤمن الرَّميُ، والعِيامَةُ ومَن تركها كانت نعمةً جحدها».

وقال رسول اللّه-ﷺ- : «كُلُّ شيء من لهو الدُّنيا باطل، إلاَّ ملاعبة الرَّجل أهله، وتأديبه فرسه، ورميه عن قوسه، وتعلُّمه السِّباحة».

قال بعض الحكماء : «مِن تمام ما يجب للأبناء على الآباء تعليمهم : الكتابة والحساب والسِّباحة».

وقال الحجّاج بن يوسف لمعلّم ولده : «علّم ولدي السِّباحة قبل تعليم الكتابة، فإنَّهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم».

وأمّا الفروسية، فهي أفضل الأعمال وأشرفها.

ومن المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس» : قال رسول اللّه- ﷺ - : «من خير معاش النَّاس لهم رجل يمسك عنان فرسه في سبيل اللّه كلّما سمع هيْعَةً، أو فَزْعَةً، طار على متنه يبتغي الموتَ مظانه».

قال ﷺ: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللّه، أشعثُ رأسُهُ، مُغبرَّةٌ قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة، كان في السَّاقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفَّع».

وقال - ﷺ - : «ارموا واركبوا».

وعُرضت عليه- ﷺ- الخيلُ، وعنده عُيَينة بن حصن الفزاريّ، فقال- عليه الصَّلاة والسَّلام- لعُيينة: «أنا أفرسُ بالخيل منك».

وكتب عمر بن الخطّاب- رضي اللّه عنه- إلى أهل حمص: علّموا أولادكم السِّباحة، والرِّماية، والفروسيّة، واخشو شنوا، وانزوا على الخيل نزواً.

وقال أسلمُ- مولاه- : رأيتُ عمر - رضي اللّه عنه- يمسك بأذن نفسه، ثمّ يمسك بأذن فرسه، فينزو عليه.

وكان يُقال قديمًا: العِزُّ في صدور الصُّفوف.

وقال بعض السَّلف: غزا المسلمون أرض الرُّوم، فمرّ فارس منهم إلى جانب صومعة راهب، فقال الرَّاهب:

يا صاحب الفرس، أمِنَ المتطوّعة أنت أم من أهل الدِّيوان؟ فقال: بل من المتطوّعة، قال له: ومالكَ والدّيوان؟ فإنّا نجدهم في بعض كتبنا أنَّهم عدّة اللّه في الأرض.

وقال مكحول: روعاتُ البعوث تقي روعات يوم القيامة.

وقال أبو ذرّ الخشني:

بَقاءُ الدِّينِ والدُّنيا جميعًا
بِكُلِّ مُقاتِلٍ ثَبْتِ الجنانِ
إذا شَهِدوا الحُروبَ رأيتَ أُسْدًا
تهشُّ كرامةً نحو الطّعانِ
همُ بِيضٌ وفي الإيمانِ بيضٌ
فما تدري مَنِ السَّيفُ اليَماني

وأمّا الثَّقافة والعلم في المحاربة، فمن الواجب المؤكَّد تَعلُّمُها.

من المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس»:

اعلم أنّ الحربَ معالمُها الصبَر، وقُطبها المكر، ومدارُها الاجتهاد، وثقافتها الأناة، وزمامها الحَذَر، ولكلّ شيء من هذه ثمرة، فثمرة الصَّبر التَّأييد، وثمرة المكر الظَّفَر، وثمرة الاجتهاد التَّوفيق، وثمرة الأناة اليُمن، وثمرة الحذر السَّلامة.

وقالوا: جسم الحرب الشَّجاعة، وقلبُها التَّدبير، وعينُها الحذر، وجَناحُها الطَّاعة، ولَبانُها المكيدة، وقائدها الرِّفق، وسائقها النَّصر، فإذا قاتلتَ فلا تبذل مُهجتَكَ وقُوَّتَك من أوّل وهلة، لئلا يأتي معظمها فتعجز وتكلّ، ولا تنشب في حرب، وإن وثقتَ بشدَّتك حتّى تعرف وجه التَّخلُّصِ منها، فمن استضعف عَدوَّه فقد اغترّ، ومن اغترّ بقوَّته فقد وهن، والحازم يحذر عدوّه على كلّ حال: المواثبة إن قَرُبَ، والغارة إن بَعُدَ، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولى.

وقد قالوا: لتكن أشدّ ما تكون من عدوك حذراً ما كنت عند نفسك أكثر قُوّةً وعدداً، فليس من القُوَّة التَّورُّط في الهوَّة.

قال هُدبة العُذريّ:

ولا أتمنَّى الشَّرَّ والشَّرُّ تاركي

ولكن متى أحملْ على الشَّرِّ أركَبِ

ولَستُ بمفراحٍ إذا الدَّهْرُ سَرَّني

ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المُتقلِّبِ

وقد جمع اللّهُ سبحانه تدابير الحرب كلّها في آيتين من كتابه العزيز فقال: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، واذكروا اللّه كثيرًا لعلّكم تُفلحون. وأطيعوا اللّه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم، واصبروا إنَّ اللّه مع الصَّابرين**﴾ (الأنفال: ٤٥ - ٤٦).

وقال تعالى: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة**﴾ [الأنفال: ٦]. فقوله - عزّ وجَلّ - : ﴿**ما استطعتم**﴾ مشتملٌ على ما في مقدور البَشر من العدّة، والآلة، والحيلة. وفسَّر النَّبيُّ ﷺ القوَّة بالرَّمي، وقد تقدّم ذلك.

عن أسامة بن زيد اللَّيثيّ، قال: كان النَّبيُّ - ﷺ - إذا غزا أخذ طريقًا، وهو يريد أخرى، ويقول: «الحربُ خَدْعةٌ».

وكان المهلّب يقول لبنيه: عليكم في الحرب بالمكيدة، فإنَّها أبلغ من النَّجدة، وفسر بعضهم النَّجدة فقال: النَّجدة هي الجرأة على الإقدام عند ازورار الأقدام.

قال عتُبة بن عبدة السُّلمي: أعطاني رسول اللّه - ﷺ - سيفًا قصيرًا، فقال: إن لم تستطع أن تضرب به ضربًا، فاطعن به طعنًا

قال بعضهم: ومن شرط السَّيف ألاّ يُسَلَّ إلاَّ عند الضّرب به، وإن سلَّ قبل ذلك أورث الجُبن، وليس في السِّلاح ما يجب أن يُحذرَ عندالعمل به كالسَّيف، فقد وُجِدَ كثير ممّن عمل به بغير حذر، ولا دُربة، أصاب أذن فرسه أو عضده، وربَّما أصاب أذن نفسه، أو رجله فقطعها، أو أثَّر فيها، فينبغي للفارس أن يتمرَّن في الضَّرب به حتّى يخفَّ عليه العمل به.

وأمّا الرُّمح فينبغي للفارس أن يخففه ما قدر، فإنّه على الخفيف أقوى، وله أضبط، وبه أحكم، وليكن بين الدَّقيق والغليظ قدر ما لا يعجز عنه الكفُّ، ولا تلتقي عليه الأنامل، فالتّوسُّط هو المحمود بحسب قدر اليد، والتمكّن من ذلك.

قلت: وأحكام العمل بالسّلاح لا يتساوى النَّاس فيه، فالتَّفاوت بينهم في ذلك شديد، والتَّباين فيه بعيد، فيجب على العاقل أن يشاهد من أهلها الأعمال، ويحاضر بها الرِّجال، ويأخذ بحظٍّ من التَّمرّن فيه مع مَن يراه أهلاً لذلك ممّن يصطفيه، حتى يعرف كيفيّة الطَّعن والضَّرب والثَّقافة في السِّلاح بالحرب، ووجوه العمل في الكرّ، والفرّ، والامتناع، والدُّخول على المبارزين، والخروج عنهم في المطاعنة، والمصارع، وملاحظة مواقع السِّهام، وأوقات الإقدام والإحجام، واستراق الأرض في المبارزة، واستدبار الشَّمس عند اللّقاء والمناجزة، والمراوغة والعطف في القتال، ودقائق ذلك ولواحقه عند النِّزال،

وترصُّد غرّة العدوّ في حال الحركة، والهدوء، أو خلع عِذار الفرس، أو قطع عنانه، لينشغل الفارس بأمر فرسه وشأنه، فيتمكّن منه في الحين، وتظهر الفرصة فيه وتستبين، ومن لم يتمرّن في ذلك فلا تغرّه نفسه بأن تسلك به هذه المسالك، ففي معرفة ذلك كلّه، وإمعان النَّظر فيه يتفاضل الفرسان، مع الاستثبات وجرأة الجنان، وشدّة الحذر عند منازعة الأقران، ومنازلة الميدان، واللّه- جلَّ وعلا- في كلّ حال هو المستعان.

قال أبو الطَّيِّب

إنَّ السِّلاح جميعُ النَّاس يَحمِلُهُ

وليس كُلُّ ذوات المِخْلَبِ السَّبُعُ

فهذا ما كتبه قلم الاستعجال على ضيق المجال، إذ الخاطر منقسم بين مراوضة طبع، ومحافظة على أصل وفرع، ونظر في أمر دين، ومسالمة قرين، ومداراة حاسد، ومدافعة معاند، وتأديب ولد، وملاحظة عادة بلد، وسياسة أهل في استصحاب العِلم، وعدلٍ وتدبير معاش، وإعداد رياش، وإصلاح حال، وفكرة في مآل،

ومعاناة دهر في صروف عام وشهر، وفي هذا كُلّه عذر إن وقع تقصير، ولا ينفرد بالكمال إلاّ العليم الخبير، سبحانه وتعالى، لا ربّ سواه، ولا معبود إلاّ إيّاه، والحمد لله ربّ العالمين.

# فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

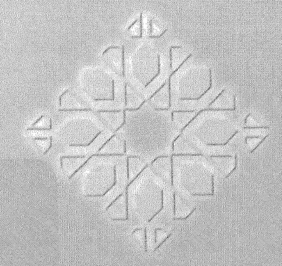
الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة









سعر النسخة داخل القطر ١٢٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٢٤٠ ل.س